عبد السلام ياسين

محنة العقل المسلم

بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى



محنة العقل المسلم

بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى

االطبعة الرابعة: 2018/1439
ISBN: 9789953506562



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

محنة العقل المسلم

بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى

عبد السلام ياسين

مقدمة

هل من فرق جوهري بين عقل من يستقي من حوض اللاييكية وينظر بمنظار مستعار، وتجري في دمائه الثقافية تيارات فلسفية متطورة متدرعة بالحجة العلومية، وبين عقل غيره من الناس؟

أليس التركيب العقلي للناس واحدا، وهم إما ذكي مثقف، وإما أمي في دركة ما من دركات الأمية؟

أما الوحي فقد تكلم فيه علماء النفس والمستشرقون وصنفوه إلى جانب الظواهر المرضية الشاذة.

لم أضع علماء النفس بين قوسين إطلاقا للإفك الجاهل والإفك المتعالم على عواهنه. وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ما به يستهدون من ضلالات العقل المعاشي الأصم الأعمى الذي يصطدم خفاشه بنور الوحي فلا يزداد إلا ضلالا.

مع المؤمنين والمؤمنات كتاب الله تعالى خالق الإنسان ومركب مداركه وهادي من يشاء إلى صراط مستقيم.

من هنا تبدأ خصوصية العقل المؤمن واختلافه الجوهري عن العقل المشترك بين البشر، عقل النظر القائم بذاته المستقل المتأله، عقل المعاش المدبر لشؤون الحياة الدنيا، المحجوب عن حقائق الغيب مادام لا يسمع من الوحي ولا يبصر نور الوحي.

ليست المسألة اصطلاحا يفرز العقل المؤمن الآخذ عن الله على حدة، والعقل المعاشي على حدة. بل هو تميز جوهري. ليس الأمر ترتيبا في درجات يكون العقل المعاشي الفلسفي أكثر أو أقل حكمة وذكاء من العقل المؤمن. بل هو اختلاف نوعي.

للعقل المعاشي العلومي مجال واسع للتفكير والتدبير المنطقي في نطاق الكونيات. متى حاول هذا العقل أن يقتحم ما فوق طوره هام في بحور الفلسفة والأطروحات والتقديرات.

إلا أن تتداركه رحمة من الله فتسوقه من آفاقه التائهة رجوعا إلى عتبة الفطرة التي يتساوى فيها الإنسان الأمي الباقي على فطرته لم يبرحها ولم يفسدها عليه الوالدان والمجتمع مع الفيلسوف العائد من جولاته وأطروحاته.

عتبة الفطرة هي بكل بساطة حاجة كل مصنوع لصانع. بديهية من بديهيات العقل البشري الساذج تتلفها الفلسفة وتدكها دكا وتردمها في ركام التقديرات، فإذا العقل البشري المعاشي المصاب بداء العمى عن البديهيات يقبل ببلادة أن يكون هو مصنوعا لنفسه.

داروين الفيلسوف الكبير تبلور مذهبه وترسخت لديه عقيدته لما زار جزر الجلاباجوس وتتلمذ هنالك على طبيعة انعزلت عن القارة ملايين السنين فطورت لنفسها نمطا للحياة يبقي الحياة على حيوانها والنبات. طورت في زعمه وعماه.

سحلاة برية طورت لنفسها على مدى حقب رئتين واسعتين لتتمكن من الغوص في البحر وتلتقم من أعشاب البحر لما شحت عنها أعشاب البر.

على مدى حقب طويلة طورت السلحفاة العملاقة أميرة الجلاباجوس أسلوبا للحياة ومقومات للحياة تتماشى مع المحيط الطبيعي. وسميت الجزر باسم السلحفاة. جلاباجو بالإسبانية تعني سلحفاة.

ماذا فعلت بنفسها هذه الماكرة ؟ إنها صنعت لنفسها على مدى أحقاب عنقا طويلة لتبلغ أغصان الشجيرات البعيدة عادة عن متناول السلاحف.

وصعد داروين على ظهر السلحفاة الأستاذة فانجلى له المذهب التطوري الذي خرج به على الناس. واستقرأ ما في القارات سهلها وجبالها، قاحلها وعامرها، فوجد أن قانون التطور عام في الطبيعة التي تصنع نفسها بنفسها، وتطور لأفرادها أعضاء تتلاءم مع البيئة المتطورة.

هكذا سحلاة الجلاباجوس وسلحفاتها، وهكذا حشرات الصحراء وحيتان البحر. وهكذا القرد الذي طور نفسه زمانا بعد زمان حتى استوى قائما، واستعمل الآلات الحجرية فنمى عقله، ووسع جمجمته، وأثقل وزن مخه، وتعاظم ذكاؤه، ونثر عن بشرته الزغب، وقوم أنفه، وسوى خلقه، ونطق بالكلام همهمة بعد إشارة، ثم لغة فلغات، ثم علوما وفلسفة.

وهكذا يدور العقل المعاشي الفيلسوف في منطق مغلق لما انسدت مسالكه وانحبست قنواته وعميت عينه وصمت أذنه عن السماع من الوحي.

مجاز وحقيقة

استأنسنا في كتاب «حقوق الإنسان» بمجاز عين العقل وشبكيته وقرنيته وبلَّوريته وما يعتريها من أمراض. واستأنسنا بمجاز الدماء الثقافية ومصبها ومجاريها ووظائفها الموازية لوظائف الدماء البيولوجية.

هيأنا الاستيناس بالمجاز للوقوف على حقيقة من الحقائق الجوهرية التي يبسطها الوحي بسطا، ويكررها تكرارا، ويضرب لها الأمثال، لكن يمر عليها قارئو القرآن مرا لا يكادون يقفون معها.

هذه الحقيقة هي أن العقل عقلان. ما نسميه عقلا لغة وتعريفا للملكة المشتركة بين البشر ليس هو مسمى العقل في القرآن.

العقل في القرآن فعل حاسة باطنة في الإنسان تسمى القلب. العقل تلق لحقائق الوحي بواسطة القلب.

والفقه في القرآن علم ينشأ في باطن الإنسان، في قلبه.

والتفكر حركة قلبية تتدبر الكون استدلالا على الله.

هذا العقل المعاشي المشترك بين البشر إما يكون آلة للقلب يخدم تطلعات القلب إلى خالقه، وإما يكون آلة للهوى المتأله، أو للنفس والشهوات، أو للفلسفة والتأملات، أو للفعل في المكونات، أو لجمع المعلومات واستنتاج حصيلة الماجريات.

وكمال العقل الآلة أن يخدم القلب وتطلعاته خدمة متزامنة متساوقة مترابطة هنا وهناك. هنا في الكون حيث يشترك مع كافة البشر في طرق تحصيل علوم الكون. وهناك وراء سجف الغيب من حيث لا تتأتى له معرفة إلا باستماعه للوحي.

ذكرت مادة «قلب» في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة. ما منها لفظة تنصرف للعضلة الصنوبرية اللحمية.

وذكرت في القرآن مادة «عقل» خمسين مرة ما منها لفظة تدل على الآلة المشتركة.

وذكرت مادة «فقه» عشرين مرة، ومادة «فكر» ثمان عشرة مرة. كل ذلك دلالة على الوظيفة القلبية الإيمانية.

يأخذ العقل الآلة علومه عن الكون بواسطة الحواس، وبواسطة البديهيات الفطرية، ثم بواسطة المنطق الناشئ. لديه من استقراء الثابتات والمترابطات والمستلزمات.

ويأخذ العقل الكامل عن الوحي ما هو من عالم الغيب، وعن المدارك المشتركة ما هو من عالم الشهادة.

يحدث للعقل المؤمن بالله المصدق للوحي عَور إذا أغمض عين المدارك المشتركة، وعجز عن التعلم من الكون، وترك آلته للإهمال والصدإ. فيفوته ركب الحياة الدنيا، ويقعد مع القاعدين العاجزين.

وذلك نقص في حقه، وقصور عن فهم رسالة الوحي الذي أنبأ بأن الله سخر لنا الكون وأمرنا أن نسير في الأرض ونستعمرها ونداقع ونجاهد. وكل ذلك ممتنع إن لم نسخر بإرادتنا واجتهادنا وتعلمنا هذه الآلة العجيبة المسماة عقلا.

ويصيب العقل المشترك الآلة عاهة العمى الكلي. لا يبصر معها البصر المعتبر على أفق الأبدية، وهو البصر بالله وبأمر الله وبالدار الآخرة وما يسعد الإنسان هنا وهناك.

يصيب الشلل والعجز في الدنيا العقل المؤمن إن أغمض إحدى عينيه وأعرض عن الاكتساب في حلبة النظر العلومي الصناعي التدافعي الجهادي جنبا إلى جنب مع العقل الآلة المشتركة.

ويضل العقل الأعمى المعرض عن الوحي فلا يهتدي سبيلا إلى الغاية الوحيدة المعتبرة على سلم الأبدية والخلود في الجنة أو النار. لا يهتدي سبيلا إلى سعادته الأخروية وإن كان بصيرا بسبل رخائه المادي في الدنيا.

ذكرت مادة «عمى» في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة، منها ثلاثة ألفاظ تدل على عمى الحاسة في الرأس. وثلاثون لفظة للدلالة على عمى القلب.

هذه الحواس المشتركة من سمع وبصر تنغلق مسالكها وتنحبس، وتتعطل وظائفها، فيسمع السامع وهو غير سامع، وينظر وهو لا يهتدي.

ذلك حين يحول كفر الكافر بينه وبين ضوئيات الوحي، ويقطع الشك مواصلاته مع مصادر السمع.

قال الله عز وجل يصف حال الكافرين مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[1].

فهؤلاء يسمعون الكونيات ويبصرونها. لكنهم كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[2].

في ميزان الحق، وعلى سلم الأبدية، ينحط عقل المعرض عن الوحي المنازع ربه على السيادة المتأله المتجبر المستكبر، إلى درجة الحيوان.

---

(1) سورة يونس، الآيتان: 42-43.
(2) سورة البقرة، الآية: 171.

سبحان الله الذي أهانه حتى أصبح يفتخر بحيوانيته، ويعتز بقرديته.

قال الله تعالى يصف الصم البكم العمي الذين لا يعقلون: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3].

لهم قلوب العضل الصنوبري التي تمرض من ترف الحضارة، ومآكل الشره، وضغوط هموم المدنية الصاخبة السريعة الدائرة بالإنسان الفردي في دوامة الهوس المعاشي. لكن ما لهم قلوب الفقه عن الوحي، ولا آذان الاستماع من الوحي، ولا أعين الاستنارة بالوحي.

﴿أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4].

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[5].

قلوب مطبوع عليها، مختوم عليها، موضوعة عليها الأقفال. أقفال هي صنعتها بعنادها وكبريائها وتفاهتها القردية.

أعاذنا الله. حمانا الله. رحمنا الله.

من المسجد وإليه

نبدأ من المنابع، من حيث بدأ العقل المسلم مسيرته. كان العقل الساذج العربي الجاهلي مفصولا عن فطرته بعوامل نفسية ومكتسبات

(3) سورة الأعراف، الآية: 179.

(4) سورة الأعراف، الآية: 179 .

(5) سورة محمد، الآيتان: 23-24.

دنيوية. كانت العصبية القبلية واقتفاء أثر الجدود، ورئاسات الرؤساء، ولهو البؤساء أهم ما يطمر الفطرة العربية الساذجة.

لم يكن لذلك العقل كبير كسب في الميدان الحضاري، لم يكن له مثلا ناطحات سحاب وصواريخ وعلوم طبية تعبث بأعضاء الإنسان وتلعب بمورثاته لعب جنون.

لم يكن لذلك الساذج مكتسبات فلسفية تراكمت مذاهبها، ولا مذاهب سياسية إيديولوجية تناقضت مكتسباتها.

لم يكن ذلك العقل على حافة دمار نووي.

لم يكن أمامه ولا خلفه كتلة من الأشياء والأفكار التي أنتجتها حضارته.

كانت الحواجز والموانع أمام الهداية نفسية أكثر شيء.

وكانت القيم المروئية من كرم وشجاعة وأمانة وشهامة وذمة مقدرة تقديرا عاليا. كما كانت العلل السياسية الاجتماعية فاشية من غزو القبيلة للقبيلة وعدوان الجار على الجار.

كانت الفاقة والقلة والحاجة وشح الموارد في البوادي سمة موازية لترف التجار المكيين الذين برز منهم رجل عرف بالأمانة والاستقامة والشرف طيلة حياته.

هذا الرجل هو محمد، من أوسط الناس نسبا وأرجحهم عقلا وأعلاهم همة. أوسط بمعنى أرفع.

وحول المسجد الحرام بمكة، وفي فناء الكعبة المشرفة، ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانه وبلاغه لما جاءه الوحي. كان هو أول

من تعجب مما أصابه لما نزل عليه شخص لم يكن يعرفه، وخاطبه، وعلمه، وقرأ عليه القرآن، وأخبره أنه رسول الله، وأمره بتبليغ الرسالة وإلقاء البيان.

فزع محمد صلى الله عليه وسلم، وجاء زوجه خديجة يتساءل ما به.

ثم عزم أمره وألقى البيان وخاطب قومه بالبلاغ.

فطائفة سمعت سمع التصديق. دخل معه في دينه ضعاف الناس وأوساطهم رجلا رجلا وامرأة امرأة تحت اضطهاد قريش.

وصم الكبراء من القوم ولم يسمعوا سمع القلب، والتف العقل المعاند المعتز بذاته المكابر المجاحد في أردية كبريائه.

لمكان الصمم والعمى في القلوب صَدَفَ من صدف وتولى وأعرض وكفر.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[1].

«فكر» هذه لفظة من بين ثمان عشرة كلمة وردت في القرآن، كلها تشير لتفكر القلب إلا هذه.

ولتنزُّل رحمة الهداية تفتحت قلوب فسمعت السمع الصحيح، وعقلت العقل المسلم، واستجابت وآمنت، وعملت صالحا فازداد إيمانها. واستمعت آيات الله تتنزل مبشرة منذرة فازداد إيمانها، ورسخ يقينها، وتوثقت صلتها بالوحي وتلمذتها له.

(1) سورة المدثر، الآيات: 18-25.

ميلاد وميلاد

هكذا ولد العقل المسلم في فناء الكعبة، في المسجد الحرام. وهكذا بدأ تاريخ الإسلام وتاريخ العقل الإسلامي.

ولد العقل المسلم في المسجد، وولد العقل الفيلسوف في الساحة العامة. في ساحة المشائين اليونان على جوانب «الأكورا».

الأكورا هو الاسم اليوناني للساحة العامة وسط المدينة، حيث ولدت الديمقراطية اليونانية سلف الديمقراطيات الغربية. ولدت الديمقراطية جنبا إلى جنب مع الفلسفة، وولدت الشورى من رحم العقل المؤمن بالله ورسوله.

نزل الوحي بالشورى فاحتال العقل المؤمن في تطبيقها واجتهد. أستغفر الله، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينطق إلا عن الوحي. ومن نسب إليه الاجتهاد من العلماء فإنما هي تغطية على خصوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليتحرر العقل المسلم من التقليد ويحتال ويجتهد في التطبيق.

وولدت القانونية الرومانية في جنبات «الفوروم». وهي اللفظة اللاتينية للساحة العامة.

حول الأكورا اليونانية والفوروم الروماني كانت المحاكم والمتاجر والمصارف والمعابد. ووسط الساحة كانت تعقد التجمعات العامة والحفلات العامة التي كانت هي المظهر الأكبر للدين.

كان الدين على الهامش مع التجارة والقضاء والمال. وكانت الوظيفة الاجتماعية الوسطى المركزية هي الوظيفة السياسية للساحة العامة.

ولد العقل الغربي اليوناني الروماني سلف العقل العصري نزيلا على عنصرية الديمقراطية اليونانية التي كانت الإنسانية لديها إنسانيتين: إنسانية المواطن الحر الذي يتمتع بكل حقوق السيادة، وإنسانية العبيد الذين لهم فقط حق البقاء في الحياة ماداموا يطيعون السيد.

ولد العقل الغربي الروماني اليوناني نزيلا على القانونية الرومانية التي كانت ترسم خارطة العالم، وتجبي إلى روما العظيمة السيدة القاسية المتحضرة الدموية ثمرات العالم.

وتضمن للمواطن الروماني حقوقا باهظة على حساب العالم الرازح في أصفاد العبودية، الثائر تارة المقموع دائما بقوة الفيالق المدربة العتيدة.

بدأت من المسجد بمكة ومن الساحات العامة بأثينا وروما مسيرتان للعقل البشري. وكان للمولودين شأن في التاريخ، هو نفس الشأن الذي نحن بصدده. لا خلاص لنا من أوهام السياسة والحداثة والعقلنة وإعلانات حقوق الإنسان ما لم نتبين بالفحص المعمق أي إنسان هو الإنسان، وأي حق هو الحق لدى هذا المولود وذاك.

سيادة الوحي وسيادة الساحة

خرج العقل المسلم من المسجد إلى الساحة، ودخلت الساحة في العقل الآخر دخولا متمكنا.

فلما جاءت النصرانية إلى روما وأثينا وسائر ديار الغرب وردت والمكان عامر بالساحة وعقلية الساحة. زاحمت النصرانية لتتصدر الحياة، فلم يتأت لها شيء من ذلك إلا بعد أن أوسعت للحضارة الفنونية اليونانية وللفلسفة الأثينية وللعقلية القانونية الرومانية، ورحبت بها واحتضنتها، واتخذت منها آلة ولباسا وهيأة ومظهرا.

واحتضن الوحي الإنسان المسلم، وكيف آلة العقل المعاشي، وصبغه بصبغة الله. ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**﴾[1].

كسر الإسلام الأصنام الحسية والمعنوية خطوة خطوة ونقل العقل الإنساني من الولاء للأوثان إلى الولاء لله الواحد القهار.

بينما احتضنت الكنيسة الواردة على مكان عامر أصنام الأكورا وتماثيل الفوروم. وأدخلت في طقوس عبادتها فنية الكورال الغنائي اليوناني، وبهرجة لباس الكاهن وترتيب مذبح قُدَّاسه. وعلقت المصورات والإيقونات والصلبان. ونصبت المنحوتات. ورفعت الأعمدة الرخامية.

وقف العقل المهتدي على عتبة الفطرة يسأل السؤال الفطري عن الخالق وعن المصير فأخبره الوحي بوحدانية الله وأخبره بالجنة مآلا للمؤمنين وبجهنم مثوى للمتكبرين. ووصف له الجنة والنار وصفا كأنها رأي العين.

وأخبرت الكنيسة التي حرفت دين رسول الله المسيح عليه السلام بالشرك الثالوثي، وبالسماء بعد الموت. سماء هي في نطق الكنيسة

(1) سورة البقرة، الآية: 138.

وتعليمها أشبه شيء بأشباح الأولمب اليوناني الذي تطير فيه الآلهة وتتنازع وتصطلح ثم تتقاتل.

ولدت الديمقراطية عنصرية، وولد العقل الغربي المتشبع بالقانونية الرومانية والأسطورية اليونانية وثنيا ماديا. ما خلصته النصرانية لأنها ما تخلصت بل تورطت وانغمست.

فعندما نتحدث عن الاختيار بين عقلين وعقليتين، فإنما نختار إما سيادة الوحي خالصا مخلصا يستقي من نبعه المحفوظ في كتاب الله وسنة رسوله، وإما سيادة الساحة التي سكنت العقل الآخر واحتلته بماديتها وعنصريتها وضبابية أهدافها.

لا شك أن المنبع الإسلامي، أي الوسط الاجتماعي البشري الثقافي، تفاعل مع الوحي تأثرا وتأثيرا. لكن التأثير كان حاسما قويا لضعف المكان وقوة الوارد.

بينما وارد النصرانية اليهودية على مكان عامر بالثقافة الفلسفية والديمقراطية العنصرية والقانونية الاستعمارية تأثر أكثر مما أثر، وأخذ أكثر مما أعطى، وامتزج واختلط.

فلما طردت الفلسفة التنويرية الثورية الكنيسة من سدة السيادة طردا مطردا منذ الثورة الفرنسية ارتفعت الكنيسة من الساحة تاركة ما لقيصر لقيصر، شأنها ذلك منذ نشأتها. وبقيت القيصرية والمادية الفنونية والوثنية الحواسية مطلقة تصول وتجول وتقول.

ما هو الوحي ؟

جذبت عناية الله السابقة عبده محمدا صلى الله عليه وسلم إلى ميقات نزول الوحي عليه. لما بلغ الأربعين من عمره حُبب إليه الاعتزال والتحنث (وهو التعبد). فكان يخرج إلى غار حراء الليالي ذوات العدد يتزود لذلك.

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن الوحي فاجأه في الغار. فجاء الملك جبريل عليه السلام فقال له: اقرأ. قال صلى الله عليه وسلم: «**فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد**». ثم غطه الثانية والثالثة. ثم قال له: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: «فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده. فقال لخديجة: **زملوني، زملوني!** حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة -وأخبرها الخبر- **لقد خشيت على نفسي !**

«فقالت خديجة: كلا ! أبشر ! فوالله لا يخزيك الله أبدا! إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصي -وهو ابن عم خديجة أخي أبيها- وكان امرءا تنصر في

---

(1) **سورة العلق، الآيات** 1-5.

الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني. فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى. يا ليتني فيها جدعا ! ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك !

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أو مخرجي هم ؟!**

قال: نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك حيا أنصرك نصرا مؤزرا».

هكذا نزل الوحي على رجل ما كان له علم بالناموس الذي ينزله الله على من يشاء من عباده.

ما كان يعلم، فلذلك فزع من رؤية رجل غريب يخاطبه ويغطه (أي يضمه بشدة) ويطلب إليه أمرا ليس له به عهد وهو الأمي.

لم يكن فيلسوفا متطلعا إلى ميتافيزيقا. لا ولا قارئا مثقفا مطلعا على تاريخ الأنبياء.

إنما كان رجلا منصرفا إلى شأنه في تجارته وأسرته وقرابته كما ينصرف الناس، حتى استيقظت الفطرة في قلبه. فرفع بصر قلبه إلى الأفق الأعلى، إلى أفق السؤال المفتقر. فجاءه الجواب الخاص الذي ينزله الله على صفوة خلقه، وهم رسله وأنبياؤه عليهم السلام.

سردنا كيف نزل الوحي. وليس الكيف الحدث جوابا عن عنوان هذه الفقرة الذي يطلب تفسير ماهية الوحي.

ما هو الوحي ؟

يستطيع كل أن يجيب بما عنده من تخرص أو استنتاج أو تعريف لغوي.

فالمحلل النفسي المستشرق يستجمع آلات صناعته ليستدل على أن الرجل كان صادقا في الإخبار عن الحدث. لكنه، مثل غيره ممن يعانون من الذهان وانفصام الشخصية خاطبته أشباح هلوساته.

وقال المعاصر الذي كذب وتولى بعد أن فكر وقدر وعبس وبسر: ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ**﴾(1).

وقال آخرون ممن صموا عن سماع النداء: مجنون، كذاب، أفاك.

وقال اللغوي: الوحي الإشارة السريعة.

وقال الله عز وجل: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾(2).

فالوحي كلام يكلم الله به عباده المصطفين إما للاهتداء في حد ذواتهم، فتلك النبوءة. وإما يصطفيهم سبحانه لحمل رسالته لمن شاء من خلقه، وتلك رسالة الرسل عليهم السلام، وقوامها النبوءة.

يوحي سبحانه إلى أنبيائه ورسله بالكلام القدسي كما أوحى إلى موسى عليه السلام، أو يرسل أمينه على وحيه جبريل عليه السلام فيوحي بإذنه ما يشاء.

(1) سورة المدثر، الآيات 24-25 .
(2) سورة الشورى، الآية: 51.

ويوحي سبحانه إلى عامة المستجيبين للرسل بواسطة الرسل عليهم السلام كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ ﴾[3].

ويوحي إلهاما كما قال عز وجل عن النحل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾[4].

ويوحي سبحانه إلى عمار السماوات من الملائكة كما قال عز وجل: ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾[5].

ويوحي إلى الملائكة أمره العزيز في المواقف الخاصة كما أوحى إليهم سبحانه في واقعة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[6].

وأوحى سبحانه إلهاما إلى أم موسى عناية منه سبحانه بوليدها السعيد: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[7].

ويوحي سبحانه ببشرى في المنام للسعداء من المؤمنين كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوحي ارتفع من بعده وبقيت لأمته المبشرات وهي جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 73.

(4) سورة النحل، الآيتان: 68-69.

(5) سورة فصلت، الآية: 12.

(6) سورة الأنفال، الآية: 12.

(7) سورة القصص، الآية: 7.

فاجأه الوحي صلى الله عليه وسلم وأفزعه، لأنه لم يكن ينتظر الحدث الجلل. كما قال الله عز وجل يخاطبه فيما بعد: **﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾**[1] وقوله عز من قائل: **﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾**[2].

جاءه الوحي صلى الله عليه وسلم. كلمه ربه بواسطة الملك الكريم. وأمره بالقراءة إذ القراءة مفتاح العلم. وعلمه الجواب الإجمالي عن السؤال الفطري الذي يلح على القلوب السليمة وتعمى عنه وتجهله وتتجاهله الفطر المريضة.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[3].

في أول جملة كلم بها الحق سبحانه خاتم أنبيائه وتاج رسله، جاء الجواب بأن الله هو الخالق لا الأصنام، ولا الأبوان، ولا الطبيعة، ولا السلحفاة الماكرة في جزر الجلاباجوس تكيف أعضاءها لتتلاءم خلقتها مع البيئة المحيطة.

وفي ثاني جملة إخبار بأصل خلق الإنسان في أحشاء ظلمة البطن، علقة ثم خلقا بعد خلق حتى يستوي الجسم ويخرج إلى الوجود الخارجي لغزا على نفسه إلا أن تتداركه العناية الإلهية فيصغي.

وحُمل صلى الله عليه وسلم رسالة إلى العالمين مبدأها الأول معرفة الخالق وتوحيده وعبادته.

---

(1) سورة القصص، الآية: 86 .
(2) سورة الشورى، الآية: 52.
(3) سورة العلق، الآيتان: 2-1.

جاءت الرسالة إلى الأرض لينشأ لها دعاة وحملة ينصرون الرسول ويجاهدون إلى جنبه. واختار العلي الحكيم سبحانه أمة أمية فارغة من كل علم، قليلة البضاعة من مكتسبات الحضارة، قبائل متفرقة تظهر إحدى معجزات الرسول المبعوث في جمع كلمتها، جاهلة سرعان ما تتعلم لتكون بعد فترة وجيزة أستاذة العالم.

كانت العرب في جاهليتها تعبد أصناما، لكل قبيلة وفخذ وأسرة صنمها المفضل. يصنع المتواضعون آلهتهم من خشب منحوت أو حجر منصوب أو خبز يأكلونه عند الحاجة. ويستورد علية القوم أصنامهم من الشام وأطراف الشام المتحضرة المتقنة للفنون الهلنستية التي احتلت بثقافتها تخوم بلاد العرب منذ غزوات الإسكندر المقدوني.

وحي يتلى على قوم أميين بهرتهم بلاغته، وأعجزهم بيانه وهم بلغاء العرب وفصحاؤها. فكان الوحي وإعجازه وتحديه الذي لم يرفعه منهم رافع أظهر المعجزات. ومعجزات أخرى كثيرة ظهرت تأييدا إلهيا على يد الرسول كما تظهر على أيدي رسل الله عليهم سلام الله.

وحي يحمله رجل عرف بالأمانة والصدق والشرف. ومعجزات خارقات مثل شق القمر. وقوم أميون قريبون من الفطرة مجردون من الحمولة الحضارية الثقيلة التي تغلف الإنسان في أردان مادته ومصنوعاته ومنحوتاته الصنمية الحجرية أو الفكرية الفلسفية.

قوم مع ذلك لبعضهم على بعض سيادة، وامتيازات ورئاسات ومصالح.

وعودي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوتل. ونهض معه النهضة العظيمة التي نقرأها في السيرة قوم سمعوا واستجابوا.

وصحب الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراحل جهاده. في الأحداث الكبرى مثل مسراه ومعرجه الشريف حين ناجاه ربه سبحانه منه إليه. وفي غزواته الحاسمة مثل بدر وأحد والفتح وحنين والعسرة.

وصحبه الوحي صلى الله عليه وسلم يفصل له ولأمته ما فرض الله عليها وما أحل وما حرم. ويبشر وينذر.

كان الوحي في مكة لمدة ثلاث عشرة سنة يركز انتباه المؤمنين والمؤمنات على التوحيد وعلى الآخرة. ثم كان جل ما تناوله بعد ذلك الحث على الجهاد، وضرب الأمثال بصبر الرسل وجهادهم، وتوجيه المسلمين في المواقف التي يحار فيها الرأي، وأحكام التشريع.

لم يُقْصِ الوحي العقل المعاشي المدبر للشؤون الحياتية. بل نصبه أميرا في مجالاته المشتركة بين البشر عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار في مسألة تأبير النخل: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**».

ولم يعتقل الوحي العقل المدبر المبتكر اليقظ المتفاعل مع الأحداث يعرف الضار من النافع، والأليق من المخطئ.

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه ويستطلع رأيهم ويتوسط في خلافاتهم فيما يرجع للرأي والحرب والرحلة والمنزل والقسمة. مستهديا هو وهم بالوحي واقفين عند نصه وروحه، مجتهدين في التطبيق حسب الاستطاعة والمقدار الموفي بالغرض، وحسب الزمان والمكان.

وتنوعت طرق نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة يشاهدون ويعيشون مع الوحي والموحى إليه في وقائع يومية تأكدوا فيها من صدق الصادق الأمين وازدادوا إيمانا على إيمان.

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾(1).

كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم الهيبة العظيمة في قلوب أصحابه رضي الله عنهم. بشريته واصلة بينه وبينهم، يشاركهم في المطعم والملبس والمسكن والسراء والضراء والمرض والصحة والفقر والغنى. وكان الوحي واصلا بينه وبين القدس.

كان الواسطة صلى الله عليه وسلم. وتلك نموذجيته التي أخبر عنها قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾(2).

وتلتقي البشرية المحمدية مع الوحي، فيسأله الصحابي الحارث بن هشام: «يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحي ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني، فأعي ما يقول**».

ومرات زارهم الأمين جبريل عليه السلام على صورة دحية رجل يعرفونه، فيحسبون أنه من يعرفون، حتى يخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه جبريل جاءهم يعلمهم دينهم.

كانوا يعرفون من تغير بشريته صلى الله عليه وسلم متى ينزل عليه الوحي. فيقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «كان نبي الله إذا أنزل

(1) سورة التوبة، الآية: 124-125.
(2) سورة الكهف، الآية: 110.

عليه كرب وتربد له وجهه». وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي «غمض عينيه، وتربد وجهه».

كان الوحي حدثا يوميا وأمرا معروفا وظاهرة مألوفة.

التزكية والتعليم

لم تقتصر مهمة النبي الرسول على حمل الرسالة وتبليغها شفويا كما يتصور بعض العابثين ممن يستهين بمقام النبوة العظيم ومهمة الرسول الفخمة الضخمة حين يشبه الرسول بساعي البريد أدى الأمانة وانتهى واجبه بإيداعها.

يتحمل الرسول مهمات عديدة أهمها ما نقرأه في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[1].

فهذان مؤهلان في الرسول، كونه مبعوثا من لدن المولى جل وعلا، وكونه منهم. كونه بشرا مثلهم، وكونه عربيا ينطق بلسانهم ليبين لهم، وكونه أميا مثل عامة الناس، لا يتميز عنهم بمعرفة مكتسبة مثل قراءة ورقة بن نوفل للعبرانية وكتابته من الإنجيل. إذ لو كان معه علم من علوم أهل الكتاب لاتهم بأنه ناقل مقلد. وقد اتهمه بالفعل طائفة من المعاصرين له فقالوا: ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾[2]، واتهمه مستشرقو هذا العصر ومستغربوه.

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.
(2) سورة النحل، الآية: 103.

مؤهلان اثنان أساسيان ضروريان أن يتكاملا ليقدر الرسول على توصيل الرسالة وعلى التأثير التربوي القائم على القدوة والمثلية.

بشر يوحى إليه. مؤيد بعد ذلك بالمعجزات والتوفيق والبركة والنصر من عند الله.

وتشير الآية إلى أربع وظائف أساسية، هي: أنه يتلو عليهم آيات ربهم، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة.

تلاوة الآيات تبليغ مادي آلته اللسان، وتبليغ بالإقناع لصدق المبلغ ينضح بصدقه نبرة صوته، وخشوعه وبيان ما يتلوه وإعجازه، ثم طاعته لما يوحى إليه، وبيانه للغامض منه على أفهام السامعين، وتفصيله للمجمل، وتخصيصه للعام. وكل ذلك وحي لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى.

وتزكية هي: «التطهير والنماء ببركة الله تعالى» كما قال المفسرون.

ثم التعليم العلمي المعرفي والتطبيقي.

يعلمهم الكتاب، يعني أنه يعلمهم الأحكام الشرعية.

يعلمهم الحكمة، يعني الكيفيات العملية التطبيقية التفصيلية. الحكمة «معرفة الموجودات وفعل الخيرات وإصابة الحق بالعلم والعقل».

مجموع هذه الوظائف يؤول إلى صفة واحدة هي صفة المربي المعلم. وقد قال صلى الله عليه وسلم حين سألوه يوما عن الطهارة من الخبث: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم**»[3].

(3) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي.

والد يعلم. مرب معلم. الوظيفتان معا مندمجتان غير منفصلتين. حنو الوالد وحبه وحرصه على النفع ووفاؤه وأمانته وتفانيه، ثم الكفاءة والقدرة والعلم الواسع، والصبر على المتعلمين والتنزل لهم حتى كان يعلمهم أخص خصوصيات الإنسان مثل طهارة الخبث. علم واسع أتاه وحيا. وحكمة بشرية ومروءة وفطنة.

يا أيها الإنسان !

الدين شرعة ومنهاج. الشرعة ما جاء به القرآن، والمنهاج ما جاءت به السنة كما قال حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. الشرعة خاطبت الإنسان، والمنهاج حقق النموذج الإنساني.

«المنهاج» هو اللفظة القرآنية لا المنهج.

المنهاج التطبيق العملي المفصل المنظم المتدرج. فما كانت تربية النبي الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه خبط عشواء.

أول ما بدأ به الوحي وبدأت به التربية ترسيخ وحدانية الخالق جل وعلا وترسيخ حقيقة البعث والنشور والجزاء والجنة والنار.

خاطب القرآن الكريم الأميين المستجيبين للداعي خطابا قويا في هذا الأمر. خاطب الإنسان من حيث إنسانيته، خاطبه من حيث فطرته ومخلوقيته. ولا يزال يخاطبه. الفرق بين الأميين الأولين وبين الناس أجمعين إلى يوم القيامة يتمثل في كون أولئك كانوا عارين أو شبه عارين عن العوائق الخارجية الحضارية التي تشوش على السمع، بينما الإنسان في عصر كعصرنا مكتظ الآفاق الحسية والعقلية بطفيليات صنعه وفلسفته وشغله وثروته وغناه وبؤسه وفاقته التي يلهبها منظر المترفين وآلات ترفهم.

والمنهاج صالح لا يزال متى توفرت في الدعاة مؤهلات التربية والتعليم، يبلغون عن الرسول، ويحذون حذو عمله الشريف.

خاطب القرآن المكي مدى ثلاث عشرة سنة الإنسان خطابا قويا بليغا. قال له من بين ما قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً**﴾[1].

وحذره من الاغترار بالدنيا ونسيان مخلوقيته. فتح له بذلك بابا للاطلاع على سر وجوده ومآله بعد الموت. ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**﴾[2].

وخاطب الإنسان في سربه الإنساني خطابا جماعيا فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[3].

(1) سورة الانشقاق، الآيات: 6-15.
(2) سورة الانفطار، الآيات: 6-19.
(3) سورة الحج، الآيتان: 1-2.

وحذر الإنسان المنغمس مع بني جنسه في ملهاة الدنيا ناسيا آخرته: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾**[1].

آيات قوية تحرك الإنسان ليستيقظ من غفلته، ولينزح عن السلوك العبثي اللاهي، وعن التظالم والتقاتل بالباطل، و عن العدوان على حقوق الغير.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

مثل هذه الآية ترسم لذلك الأمي ولهذا الإنسان في كل زمان ومكان المسار الأمثل الذي يخطو به من مخلوقيته ومقهوريته إلى تتويج وجوده باختيار العمل الصالح الذي ينال به الكرامة عند الله في الدار الآخرة.

ذكر وأنثى ما اختار أحد جنسه، ولا استشاره أحد متى وأين وكيف يبرز من العدم إلى الوجود. شعوب وقبائل، ألوان ولغات وتاريخ. وجد الإنسان نفسه مظروفا مذهوبا به.

وله الاختيار في أن يسخر ما منح من قدرات لفعل الخير، والتعارف مع الأقوام والشعوب، وإسداء المعروف. وشكر نعمة الإيمان بتبليغ الشعوب والقبائل رحمة الإسلام وبشارة أن الإنسان ما خلق عبثا.

---

(1) سورة فاطر، الآية: 5.

(2) سورة الحجرات، الآية: 13.

أية تربية ؟

وكان لابد لهذا المستيقظ على صرخات الزواجر، وعلى ضوء العلم بما هنالك بعد الموت أن يربى على خصال الإيمان والقوة ليعبر الدنيا وبلاءها وهوسها، لا تنال منه إن نالت إلا أطراف ما معه، لا تقتل فيه الروح. لا تبعثر فيه الجوهر.

وهل يظفر الباحث في السيرة النبوية كما قصها القرآن وكما بلغها من عاشوها، أنفس وأقدس من المنهاج التربوي النبوي ؟

هذه التزكية التي هي في فعل المربي المعلم المبعوث ما كنهها ؟

كيف كان «يزكيهم» ؟ كيف كانت عملية التطهير تطبق على الأميين العرب لكي نطبقها على أنفسنا في هذا العصر وفي هذا المصر؟

المنهاج نبوي قرآني أنزله شريعة من خلق الإنسان وسواه وعدله، وطبقه توقيتا وعينا وحكمة نبي موفق مسدد في حركاته وسكناته.

المنهاج النبوي التربوي التعليمي جاء من نفس المصدر الذي جاء منه جسم الإنسان وعقله ونفسه وكيانه. بما صلح به الجيل القرآني النبوي الأول تصلح به الأجيال إلى يوم القيامة إن كانت التربية والتعليم قرآنيين نبويين.

أول ما بدأ به المربي المتلقي الوحي أن شد عليه ثيابه ليقوم الليل مصليا قارئا ذاكرا مستغفرا متبتلا عابدا.

ثالث ما نزل من السور أمره تعالى للرسول ومن معه بقيام الليل. نقل من زمان الغفلة إلى زمان الذكر.

سألت أيها العقل المفتقر عن معناك وتريد أن تعرف ؟ قيل لك في أول سورة نزلت ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[1] وأنت تخليت عن كبرياء استغنائك بما عندك، وتريد أن ترجع إلى ربك.

تريد الفلاح وطهارة نفسك. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2]. خاب من طمر نفسه تحت ركام الكفر والمعاصي.

ليل التبتل ونهار السبح

فمن هنا تبدأ التزكية ! من هنا يبدأ الإسلام. من قلب دولة عادتك. وكذلك تبدأ التوبة الانقلابية.

ثالث ما نزل من السور قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[3].

وقام صلى الله عليه وسلم، وقام أصحابه السنوات الطويلة. وبقي قيام الليل بالنوافل والتلاوة والدعاء والخشوع مدخلا ضروريا إلى عالم التزكي والتطهر والتقدس.

ليس المؤمن المتزكي من يتفرغ ليله ونهاره للسجود والركوع. ذاك عابد هارب من الدنيا، له مع ربه شأن لا يعنينا منه إلا الإشارة إلى أنه حاد عن المنهاج القرآني النبوي الجهادي إلى الفضيلة الفردية.

(1) سورة العلق، الآيتان: 6-7.

(2) سورة الشمس، الآيتان: 9-10.

(3) سورة المزمل، الآيات: 1-4.

المنهاج كما جاء في ثالث السور نزولا هو: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾[4].

ليل المؤمن للتبتل، ونهاره للسبح الطويل. وهو السعي في حوائجه الدنيوية مثل الكسب، وحوائجه الأخروية مثل الجهاد. ولا يفترق شأن آخرة المؤمن عن شأن دنياه إلا اصطلاحا. وإلا فكل عمله جهاد، يسري في سبح النهار تبتلُ الليل.

فرضت ناشئة الليل، وهي القيام والقراءة والدعاء والذكر، فرضا على المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس.

ناشئة هي أشد وطئا وأعمق أثرا في تزكية النفوس وصقل مرآة القلب، وتقويم معوجات النفس.

كانت فرضا في بداية الإسلام، وهي سنة لكل تائب جاد.

للمؤمن والمؤمنة في يومها وقتان: ليله ونهاره. متى كان ليله ليل المتبتلين ونهاره نهار المجاهدين فقد استغرق عمره في الطهر.

وإن سبح الإنسان في غمرة نهار كدحه ولم يخصص مع الصلوات الخمس حصة لقيام الليل، فيوشك أن يفيض حوض نهاره على ليله، فيغمره بالهواجس والغفلات، وإذا هو خارج ميدان الجهاد وخارج ميدان التزكية معا.

ومن عمم ناشئة الليل على سحابة النهار، وعكف على عبادته، فما لنا أن نشطب اسمه من لائحة المفلحين إن شطبناه من لائحة المجاهدين.

(4) سورة المزمل، الآيتان: 6– 8.

ويسأل قوم مردوا على النفاق: ما شأن كل هذا الكلام الطويل عن الوحي والعبادة وقيام الليل بالعقل وتحريره ؟

ما هذا المكتوب كتاب جدل يجري معك في مسالكك لتعترف بكفاءته المنهجية. بل هو للتأسيس والتذكير على المنهاج النبوي.

نقلة تنقلها التربية من ليل اللهو ونهار السبح الطليق المتسيب إلى زمن مضبوط. نقلة من العمر المبذر العابث إلى حياة ذات معنى.

الطهارة

تكتنف التربية الداخل إلى الإسلام بشهادة الحق. يطرح عن نفسه بها ألوهيات كانت سيدة حياته، ويطرح الولاءات التي كانت تتنازعه. ويسلس قياده للداعي إلى الله الدال عليه المبعوث الوالد المعلم. وتلك شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

شهادة باللسان يعبر بها العقل عن استسلامه وخضوعه لخالقه، راجعا بها من تخرصاته وسؤالاته التي لا جواب لديه عنها إلى تعليم الرسول وتلاوة الرسول.

وتبدأ التزكية الشاملة، التطهير والتبريك والتقديس. يبدأ التطهير بإزالة الخبث والحدث. الوضوء بعد الغسل. الماء يعمم على الجسم بكيفيات معلومة وترتيب ونية.

بالغسل تزال الجنابة، وهي تلطخ يصيب النفس من جراء فعل الجسد. غبَرة يزيلها عن النفس الماء يعمم على الجسد. المعاني تربط بالحس، يزكو معنى الإنسان المسلم بزكاة جسمه. النية والطاعة واتباع المبعوث المعلم الوالد تعطي

هـذه الأفعـال والـتروك اليوميـة التـي كانت عـادة معنـى جديدا ووظيفة جديـدة.

النظافة من الإيمان. وإن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود كما جاء في الحديث الشريف.

لكن النظافة لا تكتسب القيمة الروحية إلا بالنية وطاعة الشرع في الكيفيات والترتيب. بالنية والاتباع يصبح الغسل عملية تقديسية تطهيرية ذات مغزى روحي. ويصبح الوضوء نورا يتخلل الجسم من الأعضاء الخارجية إلى العضو النفسي القلبي.

على الداخل إلى الإسلام من الكفر غسل ينزع عنه ما تراكم من ظلام الكفر وإباحية السلوك. ولا يدري التائب الراجع إلى ربه من غفلة ومعصية ما تراكم على نفسه من ظلام المعاصي، لا سيما إذا كان استهان إبان جهالته بالأهمية القصوى للعمليات التهييئية مثل الغسل والوضوء.

وتحتضن التربية الإسلامية المسلم من جميع أبعاده، ابتداء بجسمه. ابتداء بالطهارتين الكبرى والصغرى. من ضيع الطهارة أو أخل بشرط من شروطها فلا صلاة له، ومن لا صلاة له فلا إسلام له.

لهذا كانت عناية النبي صلى الله عليه وسلم بالطهارة كبيرة. يعلمهم جزئياتها وكيفياتها المتعلقة بالرجل والمرأة، بدقة وتفصيل.

ولهذا تجد في كتب الفقه أبوابا ضافية مخصصة للطهارة، وكيفياتها، والبحث في الماء الطهور، ومقاديره، وألوانه، وطعومه، ومغيراته، ومبطلات الطهارة، ونواقضها.

نعم، لا تجد من أبواب الفقه في كتب سلفنا الصالح رضي الله عنهم نصف المساحة التي تشغلها الطهارة مخصصة لنظام الحكم، ولا عشر

المساحة، ولا جزءا من مائة جزء. ولا تقل أهمية الشورى في حياة الأمة عن أهمية الطهارة في حياة المسلم وتقديس نفسه ورَوْحنته.

لو جاءنا النقد، وجاءتنا المقارنة من واحد سياسي لا يقيم وزنا لشعائر الدين لقذفنا في وجهه بالإعراض اللائق بالجاهلين أن شيئا نسميه شورى يتداوله قوم لا يتطهرون إنما هو لعبة وتزوير.

ولو جاءنا النقد من واحد يقارن بحسن نية بين علوم وافرة عن الماء والحدث والخبث وبين علوم غائبة عن العدل والشورى ونظام الحكم لأمسكنا بيده حتى ندله على أن تأسيس إسلام الفرد لا يقل أهمية عن تأسيس إسلامية الحكم. كل في مقامه ونسبية عاقبته. فلو عاش إنسان في ظل أكمل الأنظمة وأعدلها وأقدسها، في عصر النبوة مثلا، ثم كان لا يتطهر ولا يحسن الطهارة لكان إسلامه دعوى وزورا وبهتانا.

نحاول هنا أن نضع الأصبع على ملتقى إسلام الفرد وإسلامية النظام العام. هذا بدون ذاك بناء على غير أساس، وذاك بدون هذا فتات وغثاء.

وقفنا هنا هذه الوقفة لكيلا تنسف الرياح السياسية السافية أوتاد خيمة الإسلام الفردي فلا نشعر يوما إلا وقد نصبنا نظاما سياسيا بلا مسلمين.

بماذا يكون المسلمون مسلمين، والمؤمنون مؤمنين، والمحسنون محسنين؟ بالصلاة التي هي عماد الدين. والصلاة بدون طهارة حركات رياضية إن شئت، أو عبث واستهزاء بالدين.

طغت المادية الكافرة على العقول المغزوة حتى شاع عند السفهاء من الناس أن الإسلام شرع رياضة عجيبة هي الصلاة وحمية ناجحة هي الصيام، وضريبة هي الزكاة، وهكذا.

معاني تزكية النفس وتطهيرها من خلال تطهير الأعضاء، وتحريكها في الصلاة والحج والعمرة والخطى إلى المسجد وسائر الشعائر معان غائبة في الأدبيات الإسلامية.

أهم ما غيبها طغيان الهاجس السياسي طغيانا يماثل طغيان فقه الركود في أزمنة سابقة.

لو كان النقد جاءنا والمقارنة وردت علينا بما يشبه الاستهانة بالشعائر من خارج حوزة الدعوة لهان الأمر.

سمعت واحدا من علماء الدعوة المبجلين في ندوة مصورة يتداولها الإسلاميون ينكت على فقه «دورة المياه».

تعرض للتضخم الحاصل في فقه الطهارة يحاكمه على الهزال في فقه نظام الحكم لدى سلفنا الصالح غفر الله لنا ولهم. لكن التنكيت والعبارة المضحكة من رجل يسمع كلامه يوشكان أن تكون لهما أوخم العواقب.

ومن ينكت علينا معاشر سكان هذا العصر لإهمالنا معاني التزكية التي هي عماد رسالة المبعوث صلى الله عليه وسلم؟ ضخمنا المسألة السياسية ونستصغر ما عظمه الله ورسوله، وما علمه الوالد المعلم صلى الله عليه وسلم بالعناية التي نقرأها في أحاديثه الشريفة.

أينا أقرب إلى هديه النبوي ومنهاجه ؟ فقهاء الطهارة والورع فيها وعلاجها على كل الوجوه، أم أصحاب الإسلام السياسي الذي يجلس مزاولوه بعد أذان العصر لتخطيط الخلافة الإسلامية حتى يؤذَّن للمغرب، وهم عن صلاتهم ساهون ؟ ويستهزئون بالدين فيعتذرون أن تلك عبادة وهذه عبادة.

الصلاة

بعد الطهارة الصلاة. الصلاة الموقوتة المحسوبة بركعاتها وسجداتها وقيامها وقعودها وقراءتها وتشهدها وواجباتها وسننها وكيفياتها في وضع الأعضاء وتسوية الصف وأحكام الإمام والمأموم.

الصلاة طاعة يطيعها الجسم والعقل. الصلاة وقفة العبد أمام ربه يناجيه ويدعوه ويتضرع إليه. نداء المؤذن إليها نفير إلى الفلاح. الصلاة فلاح. من أضاعها وأخل بشرط من شروط اعتدالها واطمئنانها وخشوعها نقص دينه، وسقط على أم رأسه ولو ناضل بكل ماله وقواه ليقيم في زعمه الخلافة الإسلامية.

وهكذا الزكاة، وهكذا الصيام، وهكذا الحج.

فهذه أركان الإسلام الخمس، أركان بيت دين المسلم. فإذا كان بيت دين المسلمين واحدا واحدا قائما على غير الأساس المتين من نية التزكي وإخلاص الاتباع، فدولتك إنما هي قرية نمل.

طعم الإيمان

ويذوق المسلم حلاوة الإسلام. يزداد ذوقه كلما ازداد حضورا في عباداته ووفاء بها مكملة معتنى بها غاية الاعتناء.

هذا العقل الذي وفد على عتبة الفطرة يسأل عن الحق لا يتركه الرب الخالق الرؤوف الرحيم في قاحلة جفافه. بل يذيقه حلاوة الإسلام.

يقتنع بحجة أسمى محتدا من حجة المنطق الفكري. يأتيه الإقناع من التحول الكياني الشامل النافذ إلى نفسه من مفردات العبادة.

عن كل عبادة جزاء معجل. عن كل سؤال فطري صادق جواب.

ويرتقي المسلم إلى معارج الإيمان، فمقامات الإحسان.

يذوق الطمأنينة قلبه بذكر الله. يذوق حلاوة الإيمان برضاه بالله وطاعته لله واتباعه لسنة رسول الله.

سمع سيدنا العباس رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا**»[1]. واستمعْ إلى بث قلبك أيها المسلم لتعلم متى بدأت تدخل في تخوم الإيمان. علامة الإرسال، وعلائم النور، أن تذوق طعم الإيمان. لأن الإيمان يذاق. والذوق يقنعك إقناعا أعمق وأشمل وأتم مما يقنعك مفكر يطرح عليك وتطرح عليه مزايا الإسلام.

أستغفر الله. بل المطارحة النظرية والجدل عقم وصد عن سبيل الله.

صد هي وصرف إلا أن تكون بالتي هي أحسن. والتي هي أحسن أن تتوب وتغتسل وتتطهر وتصلي وتذكر ربك حتى تلين جوارحك من تخشب العادة، وتطاوع نفسك من عناد الكبرياء. وينطق من أعماق كيانك ما يُصَدق أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأن للإيمان طعما، وأن الله حق، والنبوة حق، والآخرة حق. وعقلك عندئذ على طريق الانعتاق من محنته. جاءته المحنة من إعراضه عن الوحي، أو استخفافه بالعلاج الشامل وتجيئه العافية، ويجيئه الخلاص، وتجيئه الحرية من الإيمان والتصديق والعمل.

(1) أخرجه مسلم والترمذي.

قل لي ! أعن محنة العقل نتحدث أم عن الطهارة والصلاة؟ ما هو العقل ؟ ما هو الإنسان ؟ أهو الجسم ؟ أهو هذا الغائب الحاضر المعروف المنكر الذي تسميه «أنا» ولا تدري ما أنا ؟

إذا كان الأنا هو العقل، وكان يفصل بين الجسد وما يتقمص الجسد، ويصدق حسه ولا يصدق الوحي فمحنته لا تنتهي.

كنف الإسلام

المنهاج التربوي النبوي منهاج فطرة، لا منهاج إيديولوجية. هو منهاج عمل لا منهاج جدل.

تنخرط في المسجد، في الصف تزاحم المسلمين. تنتظر وقت الصلاة. تتعهد الطهارة. بعد حين يخفق قلبك لسماع الأذان. بعد حين تدخل فيك روحانية المسجد. يهد ي الله لنوره من يشاء.

يكتنف الإسلام المسلم في حضن العبادات. جسمه أول ما يتناوله الإسلام.

ويأمره الشرع بحفظ جوارحه. حفظ اللسان عن الغيبة والنميمة والفجور والزور. يتعلم اللسان أن يقول خيرا عندما تكون المقالة إيجابية. ويتعلم الصمت عندما يكون الصمت حكمة. يتعلم في مرحلة أخرى أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعد أن يكون الناطق باللسان قد ائتمر وانتهى.

يأمره الشرع بصون الأذن عن سماع البهتان، وبالإعراض عن هوس القيل والقال.

يأمره الشرع بغض البصر عن المحرمات، والاستمتاع بالنظر في المصحف وتلاوة آيات الله.

ويا أذن ويا عين ما الوسيلة لصونكما في عصور الأقمار الصناعية، والتلفزيون على الخطوط، والألوان والأنغام والفحشاء الممتطية متن الفنون !

يحفظ المسلم البطن والفرج واليد والرجل في حدود الحلال المباح.

ويحفظ قلبه عن سوء الظن بالله والناس.

ويحفظ عورته باللباس الساتر. للرجل ستره وللمرأة حجابها.

ما يدري الذين يعارضون حجاب المرأة من الدين إلا ما يدري الذين يريدون أن يفرضوا الحجاب على المرأة إكراها في الدين.

في معرض الحديث عن التوبة والتربية، وانضباط المسلم بالشرع، وذوق حلاوة الإيمان، يعرض على المسلمة الاختيار بين مظهر زائف متزين متشيطن وبين حقيقة الجسم المكرم عند الله إن هو أطاع الله في الستر كما يطيعه في الطهارة والصلاة.

ما يفعل جسم حيواني في نظر نفسه بستر وحجاب !

أما في معرض النظام العام والأخلاق العامة ووازع السلطان، فحجاب المرأة المسلمة من شعائر الدين، تخجل الشاذة من عريها وتبرجها يوم تسود القيم الإسلامية. فإن لم تَخْجَل تُخَجّل.

يحفظ المسلم جسمه كلا وجزءا، أعضاء بارزة وباطنة. ويحفظ ما يدخل في جسمه من غذاء. لا يأكل الخنزير والميتة وسائر المحرمات. لا يشرب الخمر. لا يقرب المخدرات والخبائث كالتبغ.

كل ذلك شروط أساسية لتقديس الكيان الإنساني. كل ذلك من حقوقه الأساسية التي تتأسس عليها حظوته بحقه الأسمى.

الجسم الخبيث للنفس الخبيثة. ولا يدخل الجنة إلا طيبون وطيبات تقول لهم الملائكة على أبوابها: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1].

اللحم النابت من حرام أولى به النار. والأعضاء التي ما ركعت لله ولا سجدت حصب جهنم إلا أن يعفو الله. والجسم المتهور خارج ضوابط الشرع حطب جهنم إلا أن يغفر الله.

علم النبي الرسول المعلم الوالد صلى الله عليه وسلم بالقدوة الحسنة. والصحبة في المنهاج النبوي هي المدخل الضروري للتربية. صحبة أهل المسجد أساسا. وصحبة مؤمنين تجلس إليهم ساعة تذكرون الله لتؤمنوا ويزداد إيمانكم. هذا هو كنف الإسلام.

طب الوحي وصيدلية النبوة

في البداية فضل الله وكرمه وعطاؤه لخلقه. خلق سبحانه وتعالى الإنسان فسواه، وقدره وقدر له فهداه. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾[2].

فضله وعطاؤه وخلقه وتعديله وتعيينه للصورة والوقت وظروف بروزك يا إنسان من عالم العدم إلى دنيا الوجود، ثم يحييك ويميتك ويبعثك وينشرك ويحاسبك ويجزيك ويعفو ويغفر إذ هو الغفور الرحيم، أو يعاقب إذ هو شديد العقاب.

وأنت يا إنسان مكلف بالعمل، مسؤول عنه. مخلوق عملك.

تناقضٌ أول في نظر العقل القاصر، وبلاء وشدة.

(1) سورة الزمر، الآية: 73.
(2) سورة الانفطار، الآيات: 6-8.

ويصيب العقلَ المسلم عاهةُ ازدواج النظرة عندما لا يتطابق إدراك البصر العقلي المنطقي مع بصيرة القلب الإيمانية، فتنحرف ذات اليمين وذات الشمال عقيدتا الجبر والقدر اللتان شغلتا العقل المسلم ولا تزالان.

يتساءل القاصر المنحرف الذي لم يقبل بطمأنينة الإيمان تزامن نقيضين عقليين وتراكبهما وتواردهما على محل واحد.

ويقبل العقل المؤمن المفتوح العينين ما جاء به الوحي وما صدر عن النظر العقلي بارتياح يَكِلُ أمر ما أبهم على فكره المنطقي إلى ما تجلى لقلبه من حقيقة أن الله أعلم وأحكم. وأن لا تناقض أن يكون الفعل للعبد المكلف والخلق للرب القادر في وقت معا.

لـمَّا ينته الناس من الجدل حول الجبرية وما جنته من تواكل وخمول على المسلمين، وإنها لعقيدة مثبطة. فيم السعي إن كان كل شيء قد قدر أزلا ؟ سؤال أعور.

ويميل المثقفون القائلون الكاتبون المتتلمذون لمذاهب الاستشراق إلى مذهب المعتزلة القدرية الذين يجحدون ما أثبته الله في محكم كتابه من أن الله خلقنا وخلق أعمالنا.

وهذا ميل أشد عورا.

ندخل لموضوعنا في طب الوحي وصيدلية النبوءة مشيرين على من يشكو من ازدواج النظرة أن يراجع الطبيب ويستعمل من صيدلية الوالد المعلم.

الهداية منه سبحانه وتعالى، يشرح صدر من يشاء من عباده للإسلام، ويغمره بنور الإيمان واليقين كما قال جل وعلا: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ**

ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

والطلب موجه إلى العبد في نفس الوقت أن يغير ما بنفسه. **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**[2].

لا تناقض في نظر من له عينان.

والسؤال العملي النافع هو: كيف أغير ما بنفسي فأتوب ليتوب الله علي ؟ أو يطرح السؤال عكسا: كيف يتوب الله علي لأتوب جزاء تعرضي لعطائه بالإقبال عليه ؟

يؤول السؤال إلى معرفة كيف يشرح الله الصدور للإسلام وكيف يذوق المسلم حلاوة الإيمان. وقد ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن طعم الإيمان يذوقه من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا.

الرضى حالة نفسية قلبية. شعور قلبي واقتناع يشمل الكيان الإنساني أجمع، عاطفتَه وعقلَه وحركةَ جوارحه.

أخبرني أيها الطبيب كيف الفوز بالرضى والطمأنينة ؟

سريريا كما يقول الأطباء ؟

ويجيب الوحي على لسان الوالد المربي المزكي المعلم صلى الله عليه وسلم كما روى الشيخان عن أنس: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن طعم الإيمان. من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن أحب عبدا لا**

(1) سورة الأنعام، الآية: 125.
(2) سورة الرعد، الآية: 12.

يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود للكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار».

من أدركوا الرسول الوالد صلى الله عليه وسلم قد دخلوا إلى حب الله بحب رسوله. رسول رؤوف بالمؤمنين رحيم لين مجيب. ووجدوا طعم الإيمان.

ولكل جيل بعده واسطة هذه الثلاثية. أن يحب سائل الفطرة عبدا لا يحبه إلا لله. وأن ينخرط في المسجد مع مؤمنين يحبهم في الله.

يتجسد هذا الحب شيئا فشيئا لدى الوارد على المسجد المتعطش للإيمان. صحبة أهل المسجد، وقدوة أفراد من صالحي أهل المسجد، يحملانه على جناح صدقه ونية إقباله على الله إلى حيث يوجد طعم الإيمان.

الصلاة معهم خمس مرات في اليوم، ومجالستهم، ومعاشرتهم، والتعاون معهم. ويسري الحب في الله بإقناع شمولي يشارك فيه العقل المنفتح والمشاعر والأشواق. لا يستبد العقل بجفافه المنطقي ولا يلتف في عباءة أنانيته.

هذا شرط. إقبال كلي لا فضول فكري.

ومن هنا يكتسب الوارد السائل المتفتح الصادق مزيدا من الإيمان بتطبيقه لحمية الطبيب وتناوله لحبات العلاج ومفرداته.

في القرآن الكريم وفي السنة النبوية عشرات من الرحمات. عشرات من الجزاءات المشروطة: من فعل كذا فله كذا.

وجد طعم الإيمان جزاء معجل ليثبت الطالب على مسيرته ويتقدم. وليس ذوق الإيمان وطمأنينة النفس بذكر الله على نفاستهما إلا مقدمات وعربونا على القصد الأسمى الأخروي.

يسمو قصد من جاء إلى عتبات الطب النبوي درجة درجة. يسأل الله خيرا بعد خير، ثم تعظم ثقته بالكريم الجواد سبحانه فيسأله خير الدنيا والآخرة.

وفي صيدلية النبوة أن من فعل ذلك حتى غلب عليه الدعاء والطلب والثقة الصادقة يُعطى ثم يُعطى.

روى الترمذي حديثا حسنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من أوى إلى فراشه طاهرا يذكر الله حتى يدركه النعاس، لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه**».

ثم يسمو قصد الصادق المشمر عن ساعد الجد والاجتهاد والجهاد، فيطلب بعد عافية طعم الإيمان، وصحة خير الدنيا والآخرة، مزية الدخول في كنف الرعاية الشاملة والعناية الضافية.

تتقدم إليه الشروط على لسان الترجمان النبوي القائل صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي ذر: «**يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة. ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة**».

الله ! الله !

يثق أحدهم بطبيب مختص، ويثق بالدواء المختص. حبة صفراء، بعدها بأربع ساعات حمراء، وأخرى في المساء.

ويستسلم، ويسلم بين يدي طبيب يعرف لما أحس في جسده بألم المرض وعانى من أوجاع الكلية والقلب. ولو أمره الاختصاصي بمتناقضات الألوان لما التفت عن ثقته به.

ولا يثق بأن هنالك طبا للقلوب وشفاء لما في الصدور إلا من أَيِس من تهويمات فكره، وتسكع حركاته في الحياة، وبؤس حيوانيته، وأصاخ يوما، أو ساعة، أو لحظة لنداء «حي على الفلاح».

والمنهاج الطبي كما يصفه القرآن وتصفه السنة: من فعل كذا فله كذا. وأنت تغير ما بنفسك ليغير الله ما بك. أنت تتقرب منه بما رسم لك ووظف عليك من طهارة وصلاة وزكاة وصيام وحج وذكر وأعمال صالحات.

أنت تتقرب شبرا شبرا، والمولى يضاعف الجزاء ويطوي المسافات.

وأنت أيها الأنا العقل على طريق الانعتاق من محنتك.

فلك ومدار

لكن الإنسان يطغى أن رآه استغنى. عقل صنع نفسه في اعتقاده بصراعه مع الطبيعة وتطويعها وركوب متنها، أين منه الالتفات إلى أن سعيه في الحياة عبث ما دام هو لا يعرف لنفسه هدفا أسمى من اللذة والمتعة و«الجنس» والمنفعة والأنانية ؟

أنى له أن يدرك أن قناعته بمرتبة الحيوانية بؤس ما أشد كلوحا منه بؤس ؟ وأن شقاءه بالكدح الفارغ من المعنى ما مثله شقاء !

عقْلَن الطبيعة ورجع على نفسه يعقلنها، وبتَر من ذاته الشطر الأهم، بل الكل في الكل، إذ جهل كرامة الإنسان وحقه الأسمى في معرفة الله والاستعداد لسعادة الأبد في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

تركُّز العقل العفريت المصارع على نفسه وهواه شده إلى مدار فارغ.

يدور العقل المسلم حول شمس الوحي متعرضا لضوئها مستشفيا من أشعتها. والعفريت كفر بكل دين بعد أن خَبَرَ من «أسرار» الكنيسة وفضائحها ما زهده في كل دين.

ما أسرع ما رجع عقل المسلمين الأُول من الشرك الساذج الذي كان يصنع آلهة من خبز يأكلها عند الحاجة.

أما عقل «التنوير» اللاييكي فقد شاهد الكنيسة وهي تصنع إلهها صباح مساء ثم تأكله وتُلْقِم حجرا كل من سأل عن «أسرار» لا يمكن للعقل غير المقدس فهمها.

كان الكاهن، ولا يزال، يصنع إلهه عند الحاجة ويطعمه الناس. تسمى هذه العملية العجيبة «أوكارستي»، يأخذ الكاهن خبزا مخصوصا وخمرا «فيقدسهما»، فإذا الخبز لحم الإله والخمر دمه. ويطعم ربَّه من يشاء.

كيف لا يضحك العقل المخترع من هذه الطفوليات المبكية؟

وكيف لا يبحث العقل المخترع الفيلسوف عن مدار يرتكز عليه بديلا عن تبعيته لكنيسة مشعوذة ؟

على رأس الكنيسة كان آل بورجيا. الاسم وحده له في التاريخ فوح الفضيحة التي لا تكتب.

وفي محارق الكنيسة يلقي «المكتب المقدس» وقودا بشريا كل يوم لمدة ستة قرون.

وكما مَرَد قوبرنيق عن عقيدة الكنيسة في الفلك وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس، كذلك تمخضت فلسفة الأنوار عن قوبرنيقية فلسفية حين قلب كانط المفاهيم وصدَّر العقل في مركز الوجود، يدور حول العقل كل شيء.

وصدر شوبنهاور الإرادة، جعلها مركز كل شيء. نترجم إلى لغتنا فنقول: إنه الهوى يعبد صنما معنويا بديلا عن أصنام الكنيسة.

وصدر الفيلسوف المجنون نيتشه الهوى، قدَّمه في الاعتبار على حب المعرفة. إرادة القوة عنده هي البديل الوحيد «لأخلاقيات العبيد» التي أثلتها قرون من الاستبداد الفكري والقمعي والانتهازي للكنيسة.

صراعيا كان الفيلسوف المجنون الذي مد ظله على الفكر المارد. صراع هو الوجود بين الحياة والموت. والتطلع إلى «السوبرمان» هو الطموح الإنساني الأمثل.

كان العقل الذي أسلم بين يدي الوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عقلا ساذجا لـمَّا يستغلظ بإنجازاته الحضارية. فدار حول فلك الوحي في عافية. واستشفى وصح وأشع الكمال على البشرية حينا من الدهر.

وهاهي دورة الزمان تجد العقل المسلم الموروث لا يزال متشبثا بإسلامه، لكن أمامه العقل الآخر الذي احتل العقول المطحونة في طاحون الثقافة العالمية كما يحتل العفريت من الجن شخصا يتخبطه من المس.

استيقظ العقل المارد، واستغلظ بخيله ورجله من الاختراعات فهل يجدي في صرعه والتلقيح ضد جرثومته والشفاء من مسِّه طب الوحي وعلاج النبوة ؟

الإسلام دين جماعة

من خطوات التائب العائد إلى ربه السائل عن معنى وجوده تبدأ المسيرة الظاهرة، من خلفها العناية السابقة الإلهية.

يؤيد هذه الخطوات ويسددها نور العبادة وتثبيت الحق سبحانه. ويعضدها الفعل الطبي الناتج عن تعاطي الأمر والاحتماء من المنهي عنه.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[1].

وكل طاعة تنور العقل، من الطاعات ما يذيق طعم الإيمان. ومن قواعد التطبيب والتربية الانخراط في سلك الجماعة بالمسجد.

المسلم ينهى نفسه، يمسك بتلابيبها، ويزجرها، ويحاسبها، ويحملها محامل الصدق والجهاد.

وتنهاه صلاته، وتنهاه تقواه.

وينهاه غيره من المسلمين لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويتعاون مع المسلمين على التقوى.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

يتخذ المؤمن نفسه موضعا للإصلاح والتقويم كيلا يلقى الله وهو مَعيب مشوه الخلقة المعنوية. ينهى النفس عن الهوى ويأمرها بالتقى.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.
(2) سورة النازعات، الآيتان: 40-39.
(3) سورة المائدة، الآية: 3.
(4) سورة التوبة، الآية: 72.

ويتعامل في الجماعة بالعملة المتداولة: الحب والصدق والعلم. إلى خصال أخرى من خصال الإيمان وشعبه.

هو يحاسب نفسه بصرامة لأنه لا يغش إلا نفسه إن جاملها. وهم يرفقون به بداعي المحبة، لكن ينصحونه بما يتحمل إلى أن يحمل عبء نفسه. ومراعاة التلطف حكمة دائمة. وسنة قائمة. ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[5].

المؤمن الوارد على الجماعة المؤمنة يجد في إصلاح نفسه وتقويمها ونهيها عن الهوى منذ يستقر لديه أن فلاحه في الآخرة يتوقف على إتيانه أمام ربه بقلب سليم. فَهمُّه منذئذ أن يتطهر ويتزكى باطنا كما يتطهر ويتزكى ظاهرا.

يتزكى ويتطهر ويتقرب إلى الله شبرا شبرا وذراعا ذراعا، وحقه على إخوته، وحقها على أخواتها، وواجبهما عليهم أن يعاون كُلٌّ كُلاًّ على قطع العلائق مع ماضي الغفلات، وعلى قطع المسافات.

مراتب وسباق

قلت: «قطع المسافات» مجازا. لأن الله عز وجل ليس بينه وبين عباده أشبار وأذرع، إنما هو تعليم وتقريب مؤداه أن يتصور المؤمن والمؤمنة أن هناك سيرا وتقدما. وليشعرا أن الأمر سباق بين من يجتهد ومن لا يجتهد، ومنافسة بين من يجد في السير ومن يتلكأ، منافسة حث

(5) سورة آل عمران، الآية: 159.

الله تعالى عليها في مثل قوله: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ**﴾[1]، أو في قوله: ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[2].

لا يتصور المسلم الراكد المنعزل، ولا الجاهل، أن الدين مراتب: إسلام وإيمان وإحسان. ولا يشعر، ولا يتحفز للاجتهاد في إصلاح نفسه واستباق الخيرات ليفوز بالقرب من الله.

يمدح الله سبحانه من العباد من أصبحت له إلى الله حاجة ملحة صادقة عاملة مجتهدة أن يتقرب ويسابق. فهو يدعو ويتضرع ويبتغي إلى ربه الوسيلة. ذاك اجتمع شمل همته وتوحدت قبلة قلبه. قال تعالى: ﴿ **أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾[3].

ذاك عقله وأناه الكلي في طريقه إلى العافية والسراح من المحنة.

مزايا لا تعوض للتعاون بين أعضاء جماعة المؤمنين.

محاذر الانكفاء

وبموازاتها محاذر.

من المحاذر أن ينصرف الوراد والمستقبلون إلى إصلاح أنفسهم والتمتع بدفء المودة وجو الصفاء وألفة العشرة فينكمشوا عن الوظيفة الدعوية، ويتقلصوا وينزووا في حلقة مغلقة.

وذلك ضمور في الفهم وعلة في العقل وشلل في العمل. خارج المحضن التربوي لَفْحُ مجتمع الكراهية، ونكرات القول والفعل،

(1) سورة المائدة، الآية: 48.

(2) سورة المطففين، الآية: 26.

(3) سورة الإسراء، الآية: 57.

وتجهم الدنيا وأبنائها وبناتها. فيحجم الوارد والمستقبلون عن اقتحام عقبات خارجية مكفهرة شديدة المراس، ويركنون إلى دعة التقوقع.

أو يتغذون زمانا في مُعزلهم بتزكية النفس تلك التزكية المكروهة المنهي عنها في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[4].

التزكية المكروهة المنهي عنها الذميمة هي اغترار العامل بعمله، والمصلي بصلاته، والملتحي بلحيته.

يتغذى المزكون لأنفسهم بغرورهم زمانا سوداويا حتى يغشى أعينهم منظارٌ يُريهم الناس جميعا هلكى وهم الناجون، ضالين كلهم وهم المهتدون، كافرين كلهم وهم المؤمنون.

ويخرجون بعدئذ نقمة على البلاد والعباد.

أي الفريقين أبعد من الهدي النبوي والمنهاج التربوي: المنكمش على نفسه الهارب من لفْح الواقع، أو العادي على المجتمع الهاجم عليه ؟

تدريب الدعاة

تقتضي الاستقامة، ويقتضي الاتباع للهدي النبوي، أن يكون الرباط في حضن التربية مرحلة تهييئية لتدريب الدعاة على بسط الوجه واليد ومادة الرفق وكلمة الخير وبشارة الفرح على المجتمع قاطبة.

وظيفة الجماعة الصغيرة التربوية المنظمة أن يسري هديها في المجتمع قاطبة، وأن تُحَبَّ مجالسها، ويُسعى إلى مسجدها، وتُقبل قيادتها.

متى انزوت الجماعة الصغيرة أو هجمت أو كفَّرت فقد قطعت نفسها عن جسم الأمة بتزكية للنفس كريهة ذميمة. وعقمت وحكمت على نفسها بالبوار. ربما يكون المنزوون المنعزلون أقرب إلى السلامة.

(4) سورة النجم، الآية: 32.

خارج المحضن التربوي لَفْحُ مجتمع الكراهية، وخطر الذوبان في محيط زاخر بصخب الحياة، وأفكار الجاهلية، ومثبطات الفتنة. والدخول في معمعان الصخب والأفكار المتضاربة والفتن الثائرة جزء من تدريب المجاهدين، وعقبة من عقبات سلوكهم، وتجربة لظهور صبرهم هل تحمل هذه الظهور عبء هموم الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[1].

وفي الحديث الشريف أن من يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.

ينتظر المؤمنين والمؤمنات واجب مواجهة العقلية الأخرى بعد اكتساب الشجاعة من مواجهة النفس، وحمل النفس على الجد والجادة.

مما ينتظرهم الصمود أمام مميعات العقيدة ومذيبات الفضيلة.

مهنة التمريض

سمعت أمس على المذياع ندوة شارك فيها بروفيسورات متخصصون. أو نقول: «بروفسورون» لنجمعهم جمعَ مذكر سالماً.

سالم أو سليم. السليم في لغة العرب من لدغته أفعى عافاكم الله. سموه سليما تفاؤلا ورجاء.

تكلم البروفسورون في ندوة عنوانها «السحر الديني».

والعنوان عندهم لا يعني طعنا على الدين لأن فيه سحرا. ولا تنقيصا للسحر أن لم يكن سحرا لاييكيا.

(1) سورة الفرقان، الآية: 30.

البروفسورون صنف من المثقفين عالميي الأفق، يرطنون عدة لغات، لهم قنوات مباشرة بمعاهد الأبحاث ذات الشهرة الكبرى، متفتحون على أفكار الغير.

متفتحون يتحدثون بإشفاق وسعة صدر أبوية فكرية متفهمة محترِمة لوجهات النظر جميعا.

الإسلام والشيطان تابعان في سديم العقل المثقف العالمي لحكم هذا العقل المثقف العالمي. يتجاوز في محكمته الإسلام المقدس والشيطان المقدس.

بينما يتشدد المثقف المحلي الذي يأخذ زاده الفكري بوسائط، يتساهل المثقف العالمي المتمكن الراسخ، ويحترم الخصوصيات ويجمع في عطفه وتسامحه الأبوي المتناقضات.

بينما يحارب المحلي الخرافات والعقلية الغيبية والدين من خندقه التنويري اللبرالي اليميني أو اليساري الثوري، يفتح العالمي ذراعيه «للمقدسات» جميعا.

المثقف المحلي يحارب أوهامه كما كان الكيخوطي يحارب طواحين الهواء. والآخر متمكن ثابت أعد لكل وهم وحقيقة وخصوصية وشاذة وفاذة مكانها المريح في معرض نسبيته ودراساته المقارنة المتعالية في فلك مشرق.

فرسان واهمون هم المثقفون المحليون كما هو واهم بطل صرفانطس، سوى أن الكيخوطي ذو قلب كبير وطيبوبة مع شيء غير قليل من البلاهة. وهؤلاء أغبياء تقليد أشربوا في قلوبهم كراهية المقدسات جميعا، ما هو منها مقدس إلهي، وما هو منها مُتَحرِّم بثياب الدين، وما هو شعوذة وسحر وشيطنة. كل ذلك عند المحلي رجس وكنيسة.

ويتكلم البروفسورون عن الشيطان المقدس -يسمونه روحا- الذي يحضر في حفلات الزار التي نسميها في المغرب «دردبة».

وما شئت من مقارنات بين الشيطنة المحلية المقدسة وبين مثيلاتها في الصين والبرازيل. ما شئت من كلام مُوَثق مُرَجَّع لأصوله الإثنوغرافية، ومنابعه الإفريقية، وطقوسه المحترمة، ودلائل على صحة تجاربه، وشفاء مرضاه، وموسيقى حفلاته، وذبائحه المقدسة المحترمة.

كيف يخرج المؤمنات والمؤمنون من مسجد تربيتهم ومجالس إيمانهم إلى مجتمع يعج بالخرافات، ومقدسي الخرافات، ودعاة الزنا على رؤوس الأشهاد ؟

بعضهم يدخل المسجد كالإعصار، يبدع هذا ويبطل صلاة ذاك وينفر ويعسر. وبعضهم صامت ناكص. فبأي إقدام حكيم تخاطب أصناف البشر دون أن تتخذ نغمة توفيقية متنازلة منهزمة، ودون أن تعدُوَ وتتشنج وتمزق أحشاءك كمدا وعجزا ؟

ولعل في القوم قلوبا كبيرة لا تكون معها البلاهة، بل النباهة وقبول الحق إن نطق بالحق حكماء.

تجارة الدنيا والآخرة

حارث لآخرته، ينام طاهرا ويتقلب في فراشه يسأل الله من خير الدنيا والآخرة. ويعمل من الصالحات ما يتحقق به شرطه في تجارة «من فعل كذا فله كذا».

كان عبد الله بن جعفر إذا أسدى معروفا لطالب وأدى حقا من الحقوق يقول لصاحبه: «مرحبا بمن يحمل زادنا إلى الآخرة!».

لا يتقرب عبد من الله الودود سبحانه إلا بما شرع في محكم كتابه أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من الوحي. وقد أذن سبحانه لعباده أن يسعوا في تجارة الآخرة، ودل على ذلك في قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

يقول المتعلم في مدارس الآخرين: «هذه أخلاقية نفعية، أخلاقية الأجراء. باعث منحط أين هو من فعل الخير للخير !».

اعتراضُ أخلاقية مفتوحة على الفضاء. لا تؤمن بالآخرة. ولا تتعرف على رخصة وضعها الله سبحانه على مَدْرجة المؤمنين.

فعل الخير للخير وعشق الجمال والعدل للجمال والعدل. إنما هي مثالية أفلاطونية تعبر عن تعنت ضد الدين، أو تبوح بضَيْعتها وسط الماديات والنفعيات والمكيافليات السائدة في عالم السياسة السَّيطرية وحقوق الإنسان المـُستَرِقَّة للإنسان تحت غطاء القانونية الدولية.

في حجر التربية والتدرج في التزكية ينتقل الناشئ والتائب من حضيض حب الدنيا وزينتها، ومن السعي فيها إلى اللذة الأنانية، إلى طلب الآخرة والسعي لها سعيها. وهي نقلة فارعة. من تجارة الدنيا إلى تجارة الآخرة ينتقل. مسافة وأية مسافة !

(1) سورة الصف، الآيتان: 10-13.

وهي رخصة من المولى سبحانه، يتجاوز سبحانه عن التفات العباد إلى أعمالهم، واعتمادهم عليها، وتعاملهم بما أوحى به من شرطية «من فعل كذا فله كذا».

يُرجى من كرمه سبحانه أن يرفع العبد من هذا الالتفات إلى معارج الاعتماد على فضله سبحانه، والخوف منه والرجاء فيه. لا يرى من نفسه إلا التقصير، ولا يزيد بهذا الشعور إلا اجتهادا وتعبئة لكل قواه ليزداد من الخير.

في هذه المرتبة من الرقي الروحي يطلب المؤمن أن يكون عبدا لله خالصا، بعد أن كان باعثه باعث أجير، نِعْمَ أجير الله الكريم، يضاعف الحسنة ويزيد. وفضله أوسع، وقربه أرفع.

يغيب عن مقلة قلبه في هذه المرتبة الجزاء. يبكي على خطيئته وتقصيره حياء من ربه وخوفا، ويجاهد شكرا. يسأل الله الجنة لأن الله حببها إلينا وبالغ في وصف نعيمها، لكن قصده القرب من ربه. والجنة مثوى للمقربين، ودرجاتهم فيها الأعلى، وأعلى نعيمها النظر إلى المولى.

مؤمن أصبحت له عند الله حاجة، أصبح وجه الله مطلبه، وحب الله باعثه. والطريق المستقيم إلى المرضاة والقرب الجهاد.

فيرجع هذا العبد المترقي في سلم الإيمان والإحسان إلى ميدان العمل. ينزرع مشروعه في مشروع الجماعة، ويتزاوج طموحه الفردي الأخروي مع الطموح الجماعي لهذه الأخرى التي نحبها ويبشرنا بها كتاب الله: ﴿**نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**﴾.

باعثان : واجب وحق

الخير كله بيده سبحانه، والشر ليس إليه. والمؤمن المطمئن إلى ربه يبذل، ويعطي، ويجود بماله ونفسه، ويسارع إلى إعطاء الحقوق ذوي الحقوق، واجبا يتخفف من مسؤوليته، وزادا يتزوده لآخرته، لا حقوقا تنتزع منه بقانونية بشرية.

لا يستوي الباعثان: باعث المؤمن المؤدي ما عليه من واجب، وباعث المراقب لقانونية البشر وعقوباتها ومكافآتها، عينه على حقه.

ولا يتشابه نظام الحقوق بين المذهبين، لأن البناء النفسي العقلي مختلف اختلافا جذريا بين المؤمن والكافر.

جماعة المسلمين وأخوة المؤمنين شيء آخر غير الروابط الاجتماعية الوطنية القومية الدستورية المصلحية. لجماعة المسلمين وأخوة المؤمنين ضوابط شرعية تحمي الحقوق، وتذهب الشذوذ والمروق. والدافع إلى الإخلاص والتوفية والصدق حرص المسلم والمؤمن على آخرته، ونقاوة سجل يلقى به ربه.

عن إسلام الصادقين نتحدث لا عن الإسلام الموروث التقليدي الراقد في حجر اللامبالاة.

في مجتمع العمران الأخوي المنشود، المسبوق بتربية وتزكية وتعليم، يستنبط المسلمون دستور سلوكهم فيما بينهم وعهود تعاملهم مع الخَلْق الدولي، والخلق الطبيعي، والبيئة المشتركة، من القرآن كل القرآن، ومن السنة كل السنة.

انطلاقة الفضائل

ومن المسجد تنطلق الفضائل، وتتوحد الجهود. قبلة واحدة، وقرآن واحد، وإرادة متعاونة، وعبء مشترك. خمس صلوات تجمع، وجمعة وخطبة، ونظام لا يتقوقع في الذات الخاصة، وسريان الدعوة من الأقرب إلى الأقرب.

في المسجد يعقد لواء الجهاد، ومن قدسيته وجامعيته يكتسب الميثاق قدسية وجامعية.

والصدق الصدق. والعلم العلم بما لك وما عليك، وما لنا وما علينا مما يقربنا إلى الله زلفى.

عالم آخر غير عالم يعتبر الشك المنهجي فضيلة، ويتخذ الأنانية دينا، ويدور في فلك الاستقرار على القانون الوضعي المؤسس على أن لا إله ولا آخرة ولا خوف ولا رجاء إلا من عجزك عن انتزاع حقك أو قدرتك على فرض إرادتك.

من المسجد يخرج المؤمنون وقد عقد كل واحد مع الله عقدا، ووثقوا فيما بينهم ميثاقا. يخرجون وليلهم ليل المؤمنين، ونهارهم نهارهم، وعهدهم عهدهم، وأخوتهم أخوتهم، وكلمتهم صدق، واتفاقهم عزم، وشوراهم دين، وقيادتهم مشتقة من طاعة الله ورسوله.

مع المؤمنين تحرث الصدق تحصد الصدق. ومن يستثمر الشك لا يربح إلا الشك مضاعفة غلاته. اضرب الشك في الشك يخرج لك الكفر ولواحقه.

﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

يخرج المؤمنون من المسجد متعاقدين مع الله، متواثقين فيما بينهم، متعاهدين نصا ووجوبا على تحرير الإنسان، وتكريم الإنسان، وتحبيب الإسلام إلى الإنسان.

ويخرجون باللواء المعقود والميثاق المعهود ليعالجوا ما زُحزح المسلمون عن مواقعهم، وما نسوا من تلاوة كتابهم، وما ضيعوا من تزكية نبيهم، وتعليم والدهم صلى الله عليه وسلم.

يخرجون لِلَمِّ شعث، وجمع شمل، وإعداد قوة، وتربية أجيال. تربية أجيال القوة والأمانة والجهاد، تحمل آلام العالم وآماله، وتحتضن الإنسان برفق الداعي وبذل من يقدم لآخرته ويرجو بِبِرِّ خلق الله جميعا رحمة الله والقرب من الله.

الكرامة الإنسانية

يخرجون للعالم ببشرى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[2].

ويتمسكون في أنفسهم بواجبات كرامة الإنسان، بفروضها ونوافلها وعامها وخاصها وعزائمها ورخصها و شر عتها و منها جها .

أول الواجبات وأقدس ما يكرم الإنسان إفراد الله بالعبادة. قال المجاهد في ديوان رستم قائد الفرس في العهد الأول: «الله ابتعثنا

(1) سورة الزمر، الآية: 33-34.

(2) سورة الإسراء، الآية: 70.

لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

قالها جندي من جند الله كلمةً من ورائها قوة صاعدة في عنفوان انطلاقتها.

ويسمع منا العالم هذه الكلمة إن تقوينا بنصر الله وبوحدتنا وبإقامة عمران أخوي نموذجي يغري الإنسان بنظافته وعدله ورخائه وإنسانيته وكرامة آدميته.

كلمتنا النموذجية المغرية الجذابة الداعية المحررة العلمية المتجسدة في كيان يتوحد لتصبح الأمة الإسلامية واحدة كما أمر الله، كلمة تنبثق من كتاب الله وسنة رسوله. تنبثق بَـنْداً واجبا يخاطب الإنسان، كل إنسان، بحقه، بندا باعثه الإيمان بدل بنود يفرضها القوي على الضعيف.

الإحسان إلى الوالدين واجب مؤكد يأتي في السياق القرآني مباشرة بعد واجب التوحيد. أي ضياع هو ضياع المنبوذين والمنبوذات في دور العجزة في أوربا الحضارة وأمريكا القوة والثروة !

إيتاء ذوي القربى من آكد واجبات التكافل الأخوي. لذي القربى في النسب حق. وللمسكين حق. وللسائل بحاله أو مقاله حق. ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[1].

هذه الثغرات في البناء الاجتماعي العصري الحقوقي القانوني لا تسدها الدولة. إنما تسدها اليد الحانية المحبة القريبة المتقربة بأنواع البر والمعروف إلى المولى البر الرؤوف الرحيم.

المجتمع العصري بارد إنسانيا، لا يزداد فيه الأثرياء إلا أنانية، ولا البؤساء في دور العجزة وشوارع نيويورك إلا بؤسا.

(1) سورة الإسراء، الآية: 26.

الإنفاق على الغارمين جهاد من الجهاد.

والأمة في غرم قانوني، تطوقنا بقانونيتها الرأسماليةُ العالمية. المديونية تخنقنا. الربا المضاعف المخزي، الوصمة في جبين الإنسانية، صنم معبود في هياكل العصر.

الفائدة، ودفع الفائدة، والقرض لدفع الفائدة وفائدة الفائدة، وشروط الصندوق الدولي والبنك العالمي. هذه بنود حقوقية محترمة جدا، شريفة جدا، في ميثاق الأمم المتحدة.

التبذير من عمل الشياطين. أضفه إلى شيطنة الرأسمالية وربويتها لتجد معادلة إفلاس المستضعفين في الأرض وفي مقدمتهم المسلمون. كم حاكم تساوي ودائعه في أبناك الحضارة الربوية ديون بلاده.

التبذير وسرقة أموال المسلمين والمسلمات أشد على المسلمين من الكوارث المرسلة. والتنمية حصيلة ممتنعة ما دام قاع الإناء مخروما.

تقول للإنسان حسنا من الدين. تربي الطفولة وترأف بها وتلقنها مبادئ الإيمان والمروءة من الدين.

كل راع مسؤول عن رعيته بند من بنود واجبات الإنسان وحقوقه.

التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر واجب وحق.

الشورى والعدل فرض مفروض.

البر بمن تعرف ومن لا تعرف من إنسان وحيوان وشجر وأرض وبيئة فضيلة مرفوعة. وقد دخل رجل الجنة في كلب سقاه. ودخلت امرأة النار في قطة حرمتها.

من بنود الواجبات الإسلامية النهي عن المنكر والتعاون على حربه.

لا تشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]. أول ما يتواصى به المسلمون. ثم لا تعق والديك، ولا تشهد الزور، ولا تفر من ساحة الجهاد، لا تسرق، لا تكذب، لا تنافق.

لا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لا تزن، لا تقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، لا تطفف المكيال والميزان، لا تكل بمكيالين فذاك حرام.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[2]. من هنا تبدأ مسؤولية كل مسلم ومسؤولية الدولة المسلمة حق الإسلام لتقرأ في القرآن كله والسنة كلها ما فرضه الله على كل من مسؤولية وواجب وفرض عين وفرض كفاية، وعدل وإحسان وشورى وأخوة وتراحم بين بني الإنسان.

قراءة مقدسة لواجبات مقدسة. والدنيا سياسة هنا، وأخلاقيات هناك. المنادون السياسيون بأخلاقيات الإنسان وحقوق الإنسان مكيافليون منافقون وذوو المروءات والأخلاق هامش.

والحكمة الإسلامية المفقودة المطلوبة تجيب عن سؤال: كيف تلتقي ذمة المسلمين مع أخلاقية ذوي المروءة في العالم ؟ كيف تُبسَط يد الصدق بين كل الفضلاء الأحرار ؟

كان الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حذرا، يقظا، وكان يقول: «لست بالخب ولا الخب يخدعني». فهذا مفتاح من مفاتيح الموقف. والله المستعان.

---

(1) سورة لقمان، الآية: 13.
(2) سورة الإسراء، الآية: 23.

تاريخ وسجل

تتدرع الولايات المتحدة الأمريكية نصيرة حقوق الإنسان بالقانونية الدولية وإجماع مجلس الأمن الموالي لإرادتها، وأخلاقية الفضيلة العالمية، لتفرض بالحديد والنار وجهة نظرها وقضاء مصلحتها على الشعوب المستضعفة.

كأن فلسطين، واحتلال اليهود لربوعها، وتشريدهم لشعبها حق. وكأن إبادة المسلمين في البوسنة والهرسك حق. تتدخل هناك منذ خمس وأربعين سنة لتتمم صنع الاستعمار البريطاني، وتمسك هناك تاركة للصرب المتوحشين مهمة المجزرة.

وأظهرت حرب الخليج ومحرقة العراق أية حقوق هي تلك الحقوق التي لا تسمح القوة العسكرية الأولى في العالم أن تمس، وهي حقوقها في نفط العرب، وتحديد أثمانه، وحماية مستوى معيشة الفرد الأمريكي المكرم أن تنخفض. لِيمُتْ أطفال العراق وشعب العراق فداء لعرش الأمير، وفداء لاحتكار نفط أمريكا.

بلاد العرب من خليجها إلى أطلسيها محمية أمريكية واحدة. هذه هي الحقيقة المرة في دولة حقوق الإنسان.

إزاء هذا كنا نقدم في الصفحات الماضية سجلا من الأخلاقيات والتربويات، لأن سجلنا الميداني يخجل أن يسمي نفسه.

ذاك الذي وقف في بساط رستم يعلم الفرس والعالم أن الله ابتعثه ليخرج العباد من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده لا شريك له،

واثقا مُقْدما مقداما، هل كان معه ترسانة توازي ما كان مع الدولتين العظيمتين على ذلك العهد ؟

ما كان معه قتالية الفرس ونظامها، ولا جحافل الروم وتدريبها.

وكانت معه أخلاقيات وتربويات وإيمان بالله عز وجل. تخرج من المسجد، وعقد العهد مع الله في المسجد. وحمل الرسالة إلى العالم يخفق على رأسه لواء عقد في المسجد.

وصنع الله القوي به وبأمته سجلا مجيدا في تاريخ الإنسانية. ما طغى المسلمون وما بغوا لأن القرآن كان فكرتهم، وقانونه كان نظامهم، وقوة باعثهم الإيماني كانت القوة المعنوية التي تمثل الفرق بين القوة المادية للجيوش النظامية وبين المجاهد المستبسل في سبيل الله.

الفرق في زماننا شاسع بعيد بين ماديات قوة في أوج عملقتها وبين أمة غثاء. وما دمنا نقيس بالمعيار المادي وحده ونحزم في وسط جسم غثائي حزام السلاح المستورد فالمسافة ستتسع، وحقوق الإنسان ستبقى قناعا يخفي وجه النكال بنا.

صدامان

اصطدم العقل المسلم بالعقل الآخر، والجسم الإسلامي بالجسم الآخر صداما مستمرا منذ بزوغه إلى يوم الناس هذا. وكان لهذا الصدام أوج وحضيض. تارة يكون العقل الآخر والجسم الآخر من الوهن والضعف والموت ما لا يبيح الحديث عن صدام من أي نوع. لأن الحي لا يصطدم في طريقه مع الموتى.

وتارة يكون عقلنا نحن وجسمنا من الوهن والضعف والركود ما لا تستحق المواجهة معه إلا أن تسمى باسمها في إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكلة نهمون مستعمرون أقوياء، وقصعة لا حول لها من أمرها ولا قوة.

وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.**»: فقال قائل: أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن.**» فقال قائل: يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[1].

عقل غثائي وجسم غثائي غزاهما وأكلهما شر أكلة أمم مصنعة متعلمة تحب الحياة وتتقن فنونها، وتكره الموت وتذيقه الناس. ونحرص نحن في حضيض غثائيتنا على حياة أية حياة ثم لا نقدر، ونكره الموت البدني مرحبين بموت الكرامة وسفك دماء الإنسانية فينا.

كان للصدام المستمر أوجان: حين برز المسلمون ووطئوا بساط رستم وأرض الفرس ومستعمرات بيزنطة، وقالوا تلك الكلمة المحررة التي فتح لها حد سيف التحرير مجال الفعل، وفتحت لها كلمة الحق محررة العقل صدور الأمم.

والصدمة في أوجها الثاني بدأت منذ قرنين من الزمان بغزوة تفوق فيها العقل الآخر التفوق الذي ما زلنا نتحدث عن عواقبه وعقابيله.

فماذا حدث للعقل المسلم الأول الساذج في نوعية ثقافته ومستوى فهمه للعالم حين ورد على معاقل الآخرين ؟

---

(1) أخرجه الإمامان أحمد وأبو داود وغيرهما.

سؤال ضروري لأن الحبل لم ينقطع بيننا وبين التأثيرات والتأثرات والموجات والرجات التي أحدثها بروز الإسلام وصدامه مع الحضارات والعقليات والفلسفات.

ولا نستطيع أن نعرف أي إنسان نعني ويعني غيرنا وأية حقوق إن لم ننظر نظرة متوازية لتطور العقل المسلم والعقل الآخر إلى أن وصل حالهما إلى ما نرى ونسمع.

من منبعنا ومنبعهم يجب أن نراقب أهم المحطات التي عبرها السيل التاريخي حتى تعاظمت قوة تناقضاته، واستفحلت دواعي نزعاته، وتعينت ضرورة تعايش مكوناته طوعا وكرها.

طُرحت على العقل الساذج الخارج من مسجد تربيته إلى العالم تحديات وأسئلة لا محيد له عن الجواب عنها. طرحتها الحضارات المعاصرة والفلسفات الدينية، والفلسفة الوثنية، والوجود الفارسي الرومي، ومسؤولية إدارة إمبراطورية تتوسع.

ما كانت الفطرة الساذجة تقبله عفوا أصبح من اللازم أن يُستدل عليه عقليا ومنطقيا أمام مجادلة الأمم الأخرى التي استقبل عامتها الإسلام بترحاب كما يُستقبل المحرر، لكن خاصة أحبار اليهود، ورهبان النصارى وفلاسفة اليونان، وموقدي نيران الزرادشتية والمانوية والمزدكية، ومعلمي الصابئة، عارضوا وجادلوا وكادوا ودافعوا عن عقائدهم وواقعهم.

كانت مراكز المقاومة في شام الثقافة الهلنستية، وعراق حرّان وفارس المجوسية.

انتصر الإسلام في ميدان القتال، وكسب شعبيته في القواعد القومية بسرعة ما بين تخوم الصين وشمال أفريقيا.

وكان لابد بعد الفتح السياسي من استيعاب الأقوام، وتقنين الشرع، وتأسيس مناهج العلوم، وتحضير البداوة وتعليم الأمية، والرد على المعترض.

كان لابد من إثبات أن العقل لا يتناقض مع الوحي، وكان لابد من شرع سلاح الجدل عن الدين في وجه طوائف الملل والنحل التي نشأت في صلب المجتمع كالخوارج، أو في مواطن المقاومة حيث كان الدين فلسفة والفلسفة دينا.

تفاعل العقل المسلم وتعلم واستوعب واستعار.

هل كانت شمس الفلسفة الأرسطية هي التي أضاءت الطريق للعقل العربي حتى كان له الشأن الذي نعرفه ؟

هل كان لاستيطان العاصمة الإسلامية في دمشق الروم ثم في عراق الأكاسرة أثر في تثبيت العصبية الأموية ثم الدولة العباسية على سَنَن الاستبداد ؟ أم هل تعلم العقل المسلم الطبقية والعنجهية مضيفا إلى قبليته الأصلية تفييئا جديدا ؟

بعبارة أوجز: ماذا كان أثر الاصطدام مع الثقافات المغايرة على الفكر المسلم والسياسة المسلمة ؟

نفس السؤال الذي يطرحه علينا العصر الآن، ونفس التحدي مع الفارق الكبير، وهو أن المسلمين في لقائهم مع فلسفة اليونان، وأديان المشرق، وعلوم الهند، وكسروية الفرس، وقيصرية الروم كانوا هم الأقوياء. بينما نحن اليوم في الكفة المرجوحة والذات المجروحة.

يقول لنا التحدي الحالي: لا حياة في عالم التنافس وسيطرة الأقوياء إلا بتنمية، ولا تنمية إلا بتقنية وتمويل وتوفير وحجم واستقرار سياسي، ووفاق اجتماعي ومشاركة وتعبئة. ولا شيء من هذا يمكن

إلا بعقلنة الفكر وعقلنة السياسة. أي أنه لا طريق إلا بنبذ الدين واعتناق دين المادية ونظام الديمقراطية اللاييكية الطارحة للدين في الركن القصي.

مقصودنا منذ فتحنا هذه الصفحات أن نتتبع المقالة اللاييكية لندحض الزعم الحداثوي ونتقدم بأن الحكم الشوري والعقل المتدين المتعلم بلا حرج من كتاب الله وكتاب العالم، كفيلان وحدهما بضمان الحياة والقوة والتنمية والوحدة للمسلمين.

كان جهد المتفلسفة من المسلمين على العهد الأول وعلى مدى قرون أن يدمجوا الدين في الفلسفة والفلسفة في الدين. من الكندي والفارابي وابن سينا إلى ابن طفيل وابن رشد كان الشعار الفيلسوف هو «صرف الشريعة إلى الحكمة». تلك كانت صيغة لاييكيتهم الدمجية، بينما صيغة معاصرينا تفريقية تريد الدين منصرفا لشأنه في الحياة الخاصة، وتريد السياسة التامة متجردة عن كل دين.

تعددت الأسباب والموت واحد.

وكان الفقهاء من جانبهم يؤكدون أن صحيح المنقول لا يتناقض مع صريح المعقول.

فمن المعتزلة القدرية الذين جادلوا الفلسفة الإشراقية والمنطق اليوناني، إلى ابن تيمية الذي جادل المعتزلة وكل الملل، مرورا بالغزالي الذي حارب الباطنية. كان علماء المسلمين يريدونه دينا قيما ينصب العقل نفسه بمقتضاه خادما بين يدي الوحي.

يمثل الإمام الغزالي رحمه الله العقل المتفتح، الباحث عن كماله، المتقدم إلى كل باب، يطرق الأبواب جميعا أينما خيل له أن هناك سراجا يستصبح به.

نازل الفلاسفة ومعه سلاح الأصولي، وبين تهافتهم. وهي جريمة لا يغفرها له فلاسفة هذا الزمان. فيعتبرونه نموذجا للظلامية في الفكر الإسلامي. ويصفون ما آل إليه بحثه من الانضمام إلى صف الصوفية على أنه خروج من الدين، وانطواء في حضن الفلسفة الإشراقية الصابئية الحرانية، ومرجعية للتواكل والخمول اللذين أصابا العقل المسلم.

كان السلاح العقلي الذي استعمله الغزالي سلاح المتكلمين الأصوليين. وكان من رأيه أن علم الكلام ومناهجه الاستدلالية لا يتناقض مع المنطق الأرسطي. وترك في كتبه من إعجابه بالحد والبرهان، وهما قمة العلم عند أرسطو، ما شنَّع به عليه معاصروه ومن بعدهم، خاصة شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال في مقدمة كتاب «المقاصد» عن منطقيات اليونان: «أكثرها على منهج الصواب، والخطأ نادر فيها. وإنما يخالفون أهل الحق بالاصطلاحات والإيرادات دون المعاني والمقاصد. إذ غرضها تهذيب طرق الاستدلالات، وذلك مما يشترك فيه النظار».

رفض العلماء المسلمون عامة، ما خلا الغزالي في مراحل بحثه الأولى وبعض من تبعوه، منطق اليونان. وحاربوا المذاهب المارقة والفلسفات الطارقة بسلاح علم القياس وأدواته.

كان أول من رفض الآلة المنطقية اليونانية الأرسطية عبقري العلماء الإمام الشافعي رضي الله عنه مؤسس علم الأصول. ورفضه العلماء من بعده لأن منطق اليونان يتكئ على ميتافزيقا وعلى فيزيقا ماديتين مخالفتين لعقيدة المسلمين مخالفة لغة اليونان للغة القرآن.

رفضوا الآلة لرفض المضمون. وهل تسلم آلة مستوردة من جراثيم تحملها في طياتها ؟

وطوروا منطقا استفاد مما «يشترك فيه النظار»، ودرسوه في المسجد بعد أن لقنوه شهادة التوحيد. درسوه في المسجد جنبا إلى جنب مع دروس النحو والفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم.

نقدوا الآلة المنطقية اليونانية لأنها فكرة قائمة على المنهجية الاستنتاجية النظرية، بينما طبيعة الفكر المسلم الاستقراء، وروحه وآلته التجربة.

وكسب علم الأصول وعلم الفقه وعلم اللغة وعلم النحو تقدما كبيرا لاعتماد هذه العلوم على الآلة المنهجية المسلمة.

بدل الحد والبرهان الأرسطيين استعملت هذه العلوم القياس الأصولي بآلته ومذهبه في السبر والتقسيم، وترفيقاته المنهجية العملية العينية في المناسبة والشبه والطرد والدوران وتحقيق المناط.

السبر والتقسيم منهجية تجريبية. تقسيم الموضوع إلى تفاصيله الجزئية، ثم البحث عن الخصائص المشتركة والعلة الجامعة، ثم العود على الأقسام بالنقد العميق (وهو السبر) لإقصاء المحتملات الواحدة بعد الأخرى حتى لا يبقى إلا التي تصمد وتثبت التجربة صحتها.

وكان التسامح مهما احتد الجدل بين المسلمين السمة الغالبة.

عاش الفلاسفة في أمن لم يحرق منهم برونو واحد، ولا حوكم جاليليو أمام مكتب مقدس. الكندي والفارابي وابن سينا ثم ابن باجة وابن الطفيل وابن رشد لم يضطهدوا. نظر إليهم الفقهاء شزرا، واكفهر المحدثون في وجوههم، وجادلهم العلماء ودحضوا حججهم جيلا بعد جيل. لكن لم تنصب مشانق ولم توقد محارق.

هل حرر المنطق الأرسطي العقل المسلم، وهل كان ابن رشد بأرسطيته الجديدة النقية هو باعث نهضة أوروبا ؟

إذا فلنكن أرسطيين بأصالة رشدية لنتحرر ونلتحق بالركب!

فلسفة أرسطو المحررة كما سربها ابن رشد إلى أروبا كانت عماد فيلسوف الكنيسة الأكبر طوماس الإكويني. ونعرف أية حرية مارستها الكنيسة.

أما الأصالة التي نحن بحاجة حيوية إليها فهي استعادة المنهجية التجريبية التي ولدت من رحم القياس الأصولي، ويدعيها غيرنا أبوة وأمومة.

نأخذ الصيغة الأصلية لمفتاح العلوم الكونية من قلم ناطق أصيل باسمها. إنه الطود الشامخ في علوم الضوء والبصريات أستاذ الأجيال ورائد طريق سلكها من بعده جاليليو ونيوتن وبيكن، والتي هي الرهينة الكريمة لدى العقل العلومي الصائل في الدنيا.

إنه ابن الهيثم الذي يقول: «نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء خواص ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس».

قال: «ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج. ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى. ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء».

قال: «فعلَّنا ننتهي بهذه الطريق إلى الحق الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين. ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف، وتنحسم بها مواد الشبهات».

انتهى كلامه رحمه الله نقلا عن كتاب «مناهج البحث عند مفكري الإسلام» للدكتور علي النشار، ص: 240 الطبعة الرابعة. وهو ينقل عن الأستاذ مصطفى نظيف، رحم الله الجميع.

لا يُسلِّم فلاسفة الزمان العرب والآخرون أن هذه المنهجية الرائعة النيرة انبثقت من علم الأصول. ويجدون في كتب ابن الهيثم من الإعجاب «بما يشترك فيه النظار» مثلما عند الغزالي.

وليس المهم أن نعثر على خيط واصل بين التجريبية والأرسطية أو لا نعثر. المهم أن الصيغة التي قرأناها صنعها عقل مسلم، لم يشعر بحاجة إلى التخلي عن دينه ليرتقي، لأنه لم يكن مهزوما بل كان منتصرا.

ويُكذِّب التاريخ النسب المزور الذي يربط بين الأب أرسطو والوالدة بيكن (وهما بيكنان: فرنسس وروجر وإلى كليهما يعزون الطريقة التجريبية).

وإن توسَّط ابن رشد في شيء فإنما توسط في تلقين الكنيسة في شخص ابنها طوماس الإكويني.

روجر بيكن الذي ينسبون إليه أمومة المنهج التجريبي رجل إنجليزي بارز في علوم زمانه درس في الأندلس، وكان رسولا من رسل العلوم، سعى بها وبآلتها التجريبية من بلد إلى بلد، ومن أمة إلى أمة. ولم يكفَّ مدى حياته عن الاعتراف بالفضل لذويه مؤكدا أن «معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق»، كما يقول الإنجليزي برفولت في كتابه «تكوّن الإنسانية». نقلته عن كتاب النشار رحمه الله.

ويقرر الأستاذ بروفولت أن روجر بيكن درس العلوم العربية دراسة عميقة، وأنه ليس له فضل ولا لسميه فرنسيس بيكن في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبا.

يقول الشاهد المنصف إن روجر بيكن لم يكن في الحقيقة إلا واحدا من رسل العلوم والمنهج الإسلامي التجريبي إلى أوروبا النصرانية. ولم يكفَّ روجر بيكن عن القول بأن معرفة العرب وعلومهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحق. يكرر ذلك ويقرره لمعاصريه.

ثم يذكر الشاهد من أهلها أن مناقشات كثيرة تقوم حول واضعي المنهج التجريبي، وأن هذه المناقشات تعود في آخر الأمر إلى تصوير فاسد محرف لمصادر الحضارة الأروبية.

يقول إن مصدر الحضارة الأوروبية الحق هو منهج العرب التجريبي، وقد «انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكن وتعلمه الناس في أوروبا، يحدوهم إلى هذا رغبة ملحة».

يقول إن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوربي هو تأثيرها في «العلم الطبيعي والروح العلمي. وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث، والمصدران الساميان لازدهاره».

ويشهد الشاهد من أهلها «أن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة. إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا... إنه يدين لها بوجوده... إن علم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر أجنبية لم تجد لها مكانا ملائما في الثقافة اليونانية».

قال: «ولكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها، ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة، والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني...».

قال: «إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربا كنتيجة لروح جديد في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء. . . طريق التجربة والملاحظة

والقياس. ولتطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأروبي».

نتنهي من كلامه ونصحح كلمتين: إحداهما أن العلم بصيغة الإفراد هو العلم الكامل، وهو العلم بالله وبالإنسان ومصيره، وهذا مصدره الوحي لا سبيل للفكر البشري إليه إلا عن طريق الرسل عليهم السلام. وما يكتسبه الفكر البشري بوسائله المودعة فيه من العلوم الكونية فيليق أن تسمى علوما بصيغة الجمع.

التصحيح الثاني هو أن هذه العلوم ما كانت في الأندلس ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القيروان علوما عربية. لغتها العربية لغة المسلمين، فهي علوم إسلامية لا تعرف العنصرية. شاركت فيها عبقريات الشعوب الإسلامية من عربية وفارسية وتركية وأفغانية وبربرية ومولدة وسائر الشعوب العجمية المسلمة. استعربت لغة كما أسلمت دينا.

بعد هذا فالأندلس الذي أضاء مصباحه على أروبا هو أندلس العباقرة الفلكيين والرياضيين والأطباء، لا أندلس الفلاسفة ومقدمهم ابن رشد.

ربما كانت الرشدية التي غزا فكرها أوربا مدى قرون رائدة في رفضها المبدئي لدمج الدين في الفلسفة و«صرف الشريعة إلى الحكمة». ربما كانت الرشدية الأرسطية النقية (أرسطو فقط !) علمت طوماس الإكويني الاستدلال المنطقي على أن دين الكنيسة حق، وعلمت السلالة التي ولدت فلتير وفلسفة التنوير أن الدين لا ينبغي أن يدخل في الفلسفة ولا الفلسفة في الدين.

بهذا تكون الرشدية التي يشيد بها الفلاسفة العرب المعاصرون إشادتهم بالفكر المعتزلي رائدة في ميدانين، معلمة لفنين. بها ربما

وطدت الكنيسة قدمها في عالم الفكر المتحجر الظلامي. وبها تحرر عبيد الكنيسة من ربقة الكنيسة.

يبحث الفلاسفة العرب المعاصرون عن سلف لهم في اللاييكية، فينادون شبح ابن رشد. ويلتمسون عند المعتزلة آباء أصلاء للعقلانية الجريئة.

وما لنا نشرِّح الجثث الهامدة ! ماتت الفلسفة الأرسطية وشبعت موتا. وماتت بعدها فلسفات نقضها تقدم العلوم الكونية، كلما اكتشف العقل العلومي أفقا جديدا للمعرفة انغلق على العقل الفلسفي أفقه الأول. وكلما أسست الكشوفات الكونية قارة جديدة للعلوم تداعى بنيان الفلسفة، وحاولت الاستنجاد بشقيقها العقل العلومي لتنشئ لنفسها بنيانا جديدا.

ماتت الفلسفات وتموت، وأعلنت إفلاسها وتعلن. بحوثها من أسرار الوجود كانت ولا تزال وستبقى عقيمة. نطحت رأسها بجدار الغوامض مما تسأله الفطرة عن المبادئ والأسباب والمعنى، فأدمى رأسه الوعل. وعقمت الميتافزيقا عن إنشاء جواب واحد متماسك.

أعلنت الفلسفة إفلاسها وعجزها عندما دفع العقل التجريبي إلى عهدتها أسئلة لا جواب عنها، فراكمتها وصنفتها في مخازن المجهول وعلقت عليها لافتة «براسيكولوجيا». وكأن تصنيف المجهولات وتأليف الموسوعات في ما يجهله الإنسان، وتعليق اللافتات الطنانة علم وإنجاز معرفي.

علومية جاليلو المنحدرة مباشرة من فلكيِّي الأندلس أسست لديكارط وجيله مصطبة عليها بنى مجده. وأسس هو منهجية

الشك والثقة بعقل «أنا أفكر فأنا موجود» ليثبت بها وجود الله. سرعان ما أخذ الديكارطيون مبدأ الشك والثقة بالعقل ليحاربوا بهما فكرة وجود ميتافزيقا مغايرة ومتعالية على الحس. وماتت الديكارطية الفلسفية المنهجية على أهمية المنجزات العلومية لدكارط.

ونقل روجر بيكن كما قرأنا منهجية المسلمين إلى الإنجليز فأثلت عندهم روح البرجماتية التي عبر عنها لوك وهيوم. فالقوم لا يؤمنون إلا بما رأوا ولمسوا. ويتحولون مع كل ريح تعطي مطرا.

فيزياء نيوتن أسست لفلسفة كانط وأعطتها الثقة بالعقل المارد الذي حوله يدور كل شيء كما تدور الكواكب حول الشمس.

وماتت الكنطية لما طلعت في فجر هذا القرن فيزياء بلانك الكمية ونسبية إنشطاين الكونية. وتكاثرت وتناثرت وتعارضت الفلسفات التي بنت مجدها على علميي هذا القرن.

وهي إلى الموت مع آخر صيحة في دنيا العلوم: وهي نظرية الفوضى الكونية.

كانت العلوم واثقة من اكتشافاتها، وهي اليوم تشعر بأن ما تحصله اليوم يهرب منها غدا. كانت الحتمية والنظام في الكون هما السمتان اللتان كشفهما الله عز وجل لهذا العقل المفتش المتطلع، واليوم يكشف له أن لا حتمية ولا نظام. ويبقى الباحث خلف مجهره ينتظر مكونات الذرة هل تأتي إلى الموعد أو تتخلف، هل تظهر تموجا وإشعاعا كما تظهر الطاقة أو تأتي متقطعة كما هو شأن المادة.

فوضى منظمة. وألغاز في الكون، ولغز أعظم فيك يا إنسان.

عودة الكريمة إلى بيت أهلها

نخرج من هذه الجولة بما يلي: المسلمون الذين صاغوا المنهجية العلومية هل تخلوا عن إسلامهم، وأقالوا العقل المؤمن من وظائفه، أم هم برعوا في العلوم لثباتهم في العلم ؟

بنفس القياس الأصولي، المتكيف بالموضوع، افتتحوا الفهم في شريعة الله المنزلة، وافتتحوا الكشف في كون الله المخلوق.

نعم كانت الإصابة بليغة وخانقة ومميتة للعقل، إصابته من جانب الحكم الجائر الذي أغلق باب الاجتهاد وكم الأفواه لكيلا يقول أحد غير ما يقوله الأمير. قال المامون العباسي: كونوا معتزلة، فسَادَ الاعتزالُ وجُلدت ظهور الأئمة.

خنقوا العقل عندنا فطارت روحه العلومية إلى تلك الديار التي استوطنها لما لم يجد في بلاد المسلمين موطنا يأويه، وحاضنة تحضنه، ومرتعا يتغذى منه، وحاميا يحميه.

كيف نسترضي الكريمة الطائرة من وكرها ؟ بأي ثمن نوطن في المجتمع المسلم روح العلومية ؟

الجواب بدهي: لا تعود الكريمة إلى بيت أهلها والجناة الخانقون للحريات الهاضمون لحقوق الإنسان على رأس الحي.

ولا تعود بلا جهاد مستميت لأنها هناك أصبحت رهينة محتكرة، عليها حراس أسكنوها في حرز أمين.

وكلاؤهم من بني جلدتنا يساومون على المهر: لا سبيل إليها إلا أن تتدينوا بدين من تبنى وربى وغذى وكسا وطور. كونوا مثلهم لائكيين ونتكلم في الشروط الأخرى.

ركام وركام

الشروط الأخرى عسيرة لأن مكونات الحضارة المتبنية حافلة بمخلفات التاريخ الفكري وركامه الفلسفي الصداعي الذي تشكل ضد الإسلام.

فالأصول اليونانية للوثنية المادية الغربية تقول: الإنسان للفن. كونوا مع فنوننا. وتقول: الإنسان خَلْقٌ في الأرض لبرمثيوس سارق النار من آلهة الأولمب. فكونوا معنا جبارين في الأرض. جمالية اليونان، والمرأة المعبودة، والجسم المعبود، والرياضة البدنية والخيال الأولمبي.

وتقول الأصول اليهودية الراسبة في أعماق الحضارة الغربية: شعب الله المختار لا حرج عليه في احتقار «الجويم» وغشه وابتزاز ماله ومتاعه وأرضه بالربا والحيلة. من حق الجويم الملون أن يرضى بما يلقى إليه. ويا فلسطين مَنْ صلاح دينك ؟

ويتفق مع نظرية الجويم اليهودية، من جانب القوة، الديمقراطية الأثينية العنصرية والقانونية الرومانية الاستعمارية.

كما تتفق معها من جانب القوة والحيلة معا الماكيافلية المتلونة التي تبرر بمقتضاها الغاية الوسيلة.

وتقول الفلسفة المادية الموجودة في طبقة ما من التراكم الجيولوجي للثقافة الغربية: الإنسان تطور فكري شب عن طفولة الأديان. حقه أن يتعلم العلوم الكونية المحررة، إن لم يعارض الجار من شعب الله المختار.

تقول الوجودية: الإنسان عبث مرمي في الكون، حقه اللهو والحزن اليائس والانتحار، أو الانخراط في نضالية ماركسية يصنع بها الإنسان لنفسه وجودا مشرفا.

تقول الدروينية المتمركزة في الجيولوجيا الثقافية: الإنسان قرد متطور. حقه أن يمارس حيوانيته بحرية وعفوية وتنافس صراعي. يبقى الأصلح ويفنى الأضعف. الأصلح حيوان قوي مستريح في قرديته.

يقول اللاأدريون: الإنسان لغز لايتعرف. حقه الألم الميتافزيقي.

تقول الدهرية الناطقة من ركن ما وطبقة ما: الإنسان حلقة في ناعورة الحياة. حقه أن يغتنم فرصة العمر القصير.

تقول الاقتصادوية: الإنسان مورد من الموارد الأساسية، حقه أن يقوم بواجبه الوظيفي.

تقول الماركسية: الإنسان عامل من عوامل الإنتاج، يدير العجلة وإلا يساق للجولاج.

تقول الرأسمالية: الإنسان سوق ومستهلك. حقه أن تزين له البضاعة وتشهر وتعلب.

تقول الثورة الجنسية: الإنسان آلة للذة. حقه الجنس بلا حدود. لا تنطق بكلمتي الزنا والخنا، فهما مخلفات بالية.

يقول نيتشه: الإنسان للقوة. لا حق للضعفاء في الحياة.

يقول فرويد: الإنسان نزوات. في يقظته شهوات وفي منامه. حقه أن لا يكبت ولا يمنع من إشباع غرائزه.

قال حب الظهور في عالم مجنون: الأرقام القياسية هي قيمة الإنسان وحقه وواجبه. إن في الرياضات أو أكل أكبر كمية من البيض في أقصر وقت.

وتنطق القومية من أعماق الأعماق فتقول: الإنسان أنا، ودولتي القومية هي المحيا والممات والحرب والسلم. وحق الشعوب التي لم

تدمرها حربان عالميتان ولم تعلمها الحرب الباردة وصراعية العمالقة ضرورة الوحدة ينحصر في التمتع بقزامتها الخصوصية، والركود في فقرها، وقتال الأقوام الأخرى، وعبادة الدولة القومية كما يعبد الرهبان الصليب، والتسلح حتى تكون صربا غالبين أو بوسنة مُبادين، أو صومالا تغيثهم حقوق الإنسان الأممية بعد أن يفنى شطر منهم جوعا وشطر آخر نزاعا قبليا.

وقالت الذاكرة الجماعية التي لم تنس ما فعله صلاح الدين بالمملكة الفرنكية الشرقية: الإسلام هو العدو. وحق العالم على الإنسان المسلم المعتز بإسلامه أن تتألب عليه المخابرات العالمية، وأن تعقد له المؤتمرات لتصفية إرهابه.

ووُبِّخ الضمير الجماعي الخاشع أمام نفخ الإعلام اليهودي في الأرقام على ما ارتكبته الهتليرية من مجازر في حق شعب الله المختار. واعتذرت الكنيسة وقالت: الإنسان اليهودي أخوكم الحق. واجبكم نحوه أن تحموه كما تحمون أنفسكم وأن تسلحوه وتفشوا له الأسرار النووية.

ويطنطن في الذاكرة الجماعية صدى سقوط الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية على يد محمد الفاتح. ويطنطن صدى حصار المجاهدين الترك عاصمة فيينا. فكلمة «جهاد» كلمة منغصة متوحشة حقها أن تمحى من قواميس الإنسانية.

ويمثُل شبح الاستعمار الاحتلالي، وجهاد المسلمين لطرد الاستعمار، وقتالية المسلمين الجزائريين في حربهم ضد فرنسا، وثورة إيران، وأسود أفغانستان فيقول: لن تُراعوا، فقد تركنا في البيت أبناءنا وأعزاءنا ووكلاءنا.

تأملنا الوجه السلبي لحضارة تكاثرية ظالمة مبذرة شيطانية ملوثة: لوثت السماء والأرض والماء والهواء. ولوثت العقول بفلسفتها الهائمة.

قياس وقياس

حاكمنا معايب الفلسفة وآثارها إلى القرآن وهذا لا يصح قياسا.

القياس الصحيح المتوازن أن نقارن معايبنا الفعلية بمزاياهم العملية. لأننا لسنا نبحث عن انتقام كلامي وشماتة لفظية. بل نبحث عن الطريق لتحرير عقولنا من الركام، ما ورد منه علينا في موكب الاستعمار المسلح، وما ترسب فينا من معاشرتهم ومخالطتهم، وما كان فينا راسبا ولا يزال من معايبنا التقليدية وأمراضنا الموروثة.

تجمَّع في قرارة نفوسنا والعقول ركام على ركام، وتفاعلت السلبيات، وتوالدت، وتركبت. فمرضنا مرض مركب.

ومن أسباب تخليد المرض فينا وتأبيد عبودية عقولنا أن نتغاضى عن مركب عيوبنا، ونستريح لثلب الآخرين، وننفض يدنا من واجب مواجهة الذات بصرامة لنعزوَ للمؤامرة الصهيونية الصليبية أدواءنا وآلامنا.

ما استعمروك إلا وفيك قابلية للاستعمار. رحمك الله يا مالك بن نبي. ولا خلفوا فيك ذرية هجينة وكيلة سادت في الميدان إلا لموقع انحطاطك الموروث.

ولا ملؤوا عقولك وجزئيات حياتك بإفرازاتهم الفلسفية، وأدواتهم الحضارية، وبضائعهم الاستهلاكية، وأنماطهم الثقافية، إلا لأنك سوق عام مفتوح مستباح.

هلم إذن نقارن بين مزاياهم ومعايبنا لنرى أية مسافة تفصلنا عن الركب. بعدئذ فقط يحق لنا أن نفكر في الكلمة التي ينتظر الإنسان أن يسمعها منا في شأن حقه الأسمى. ثم لا يسمع منا إلا إن عالجنا عيوبا واستشفينا من أمراض، واكتسبنا بالجهاد ضد النفس أولا مزايا وقوة ومنعة.

ما يفعل قوم نساجون ماهرون إلا أن يسخروا من عريان يأتيهم لينتقد آلات نسجهم، وألوان أثوابهم، ومصادر قطنهم، واقتصاد معاملهم. اكْسُ نفسك من عريها أولا وتعال نتناقش.

المقارنة بين مزايا الأوربيين النُّساج المهرة وبين أسمالنا التقليدية وعرينا المستعار تُخجل. وهي أشد إخجالا إن قارنا فقرنا بثراء اليابان. وعطالتنا من كل صناعة بصناعة اليابان وعلوم اليابان.

بالأمس كنتم مثلنا ! كيف تجاوزتم القافلة في قرن من الزمان !

كلمة سنقولها عن قريب للصين ولشعوب الأرض تمر من أمامنا ونحن ننظر في أعطاف شخصية مزورة لا يأتي منها خير أبدا.

من مزاياهم

حرف «من» للتبعيض. ونشير بمن إلى بعض المزايا الثابتة أصولها فيهم، الصامدة على معاول الهدم الحضاري الذي ينخر في كيانهم. من قوة هذه المزايا أنها لا تزال قائمة رغم السوس المتسلل إلى الجذور.

من مزاياهم الحرية، ثم الحرية، ثم الحرية. لا يعرفون العبودية لله لأنهم كفار وجاهلية. لكن الاستبداد البشري تحصنوا ضده.

من مزاياهم العلوم، وثمرات العلوم، والإنفاق عل البحث العلمي.

من مزاياهم العمل، والجد في العمل، والضبط في العمل، والكفاءة في العمل.

من مزاياهم أن العقلانية العلومية التنظيمية تسيرهم، بينما تسيرنا المزاجية والارتجال.

يسيرهم التخطيط وسبق الأحداث وتوقع نتائجها، بينما ننام حتى يفجأنا الواقع بالكوارث.

من مزاياهم التنظيم واليقظة.

من مزاياهم الديمقراطية التي تتحول إن استوردناها مهزلة، ومهرجانا فلكلوريا، وتجارة في الأصوات، وتزويرا وغشا.

من مزاياهم الواقعية التي ترضيهم بالديمقراطية على أنها أحسن نظام ممكن في سياق خلفياتهم الحضارية. يستعملون الديمقراطية واعين بعيوبها وحدودها وتلاعبها وصفقاتها، بينما هي عندنا كلمة أسطورية مثالية نُعلقها على قرن الثريا في أحلامنا العاجزة التابعة المقلدة.

من مزاياهم المجتمع المدني بواقعية أحزابه وتعددها، وبجمعياته الفاعلة، ونقاباته المناضلة، وفضائله الإنسانية التي تسارع إلى الصومال لتطعم جياعنا وتأْسُوَ جراحنا.

من مزاياهم القانون يطبق على القوي والضعيف. لا نحاكمهم إلى مثالية القرآن وحاكمية الله، فهم جاهلية يتحاكمون إلى اختيار الناس في وضع دساتيرهم وتقنين شرائعهم. والنتيجة قانون معروف له نتائجه وحدوده وحقوقه. لا مكان عندهم لإرادة الحاكم المطلقة.

من مزاياهم القضاء المستقل نسبيا.

من مزاياهم تمسك كل ذي حق بحقه، وصراخ كل مظلوم في وجه ظالمه.

من مزاياهم صحافة حرة تراقب وتنتقد، وتطرد رؤساء الدولة الخارقين لحرمة الحياة الخاصة في وُترْجيتْ.

من مزاياهم أن اللاجئ السياسي منا يطرده ظلم طواغيتنا فيجد عندهم مأوى وأمنا ومساعدة وإنسانية. ناهيك بهذه !

مزاياهم كثيرة كثرة معايبنا التقليدية والحادثة المحدثة في الدين والمركبة.

مرآة معايبنا

مزاياهم لمعايبنا مرآة سلبية، ما هو عندنا أسود يظهر للمتنازل عن دينه بياضا خالصا هناك.

نرسل المقارنة بين البياض الخالص والسواد الحالك إلى عالم المثاليات، وننكب على ذاتنا بالوضوح الصارم، وهو النصيحة التي هي من الدين، بل هو النصيحة التي هي الدين.

ننكب بالنصيحة لا لجلد الذات وإيلامها، بل لقياس المسافات المروئية، وتقدير الجهاد الواجب للتطهير، والتزكية والتربويات والأخلاقيات والتعليم والتصنيع.

إن كانت عنصريتهم المولودة مع ديمقراطية أثينا عنصرية قومية جنسية تخص الإنسان الأبيض الأوربي، فعنصريتنا قبلية بدائية. قبائل تتبختر في حلل النفط وأخرى عارية. عشائر استحوذت على أموال المسلمين وأخرى في بنجلادش. بطون منتفخة من مطاعم الحرام متقلبة في فرش العهارة والدعارة وصومال يموتون جوعا أمام أنظار العالم.

تماسك عندهم في القاعدة المدنية الديمقراطية وتداول على السلطة بين حكام عابرين. ونحن الحكام علينا مخلدون، والقاعدة فتات. أولئك مخلدون بالسيف لأن هذه فتات وقصعة يا من يجمع !

تطور فكر غيرنا ونحن عقولنا ونفوسنا تعشش فيها الشعوذة والخرافة، وتتنوع فيها فنون «السحر الديني المقدس».

مرميون نحن على هامش الحياة الدنيا مع همل البشرية المنبوذة. فما يغني عنا شيئا أن نندد بالوجودية العبثية متسلين بأن لهم الدنيا ولنا الآخرة. آخرتنا مفرومة مخرومة إن بتنا في الدنيا هملا وفرطنا في رسالتنا.

نحن القردة، يأتون للفسحة في ديارنا، والتفرج على فلكلورنا في نزلات السياحة وكازنوهات القمار، وخمارات الليل وبنات الليل. لا يطيق القلم القرب من فتن ما تفعله الإباحية في نسائنا ورجالنا. نستورد الإدز - السيدا مع العاهرات السائحات الشقراوات، ويتوطن في بلادنا بلاء على بلاء الدولارات التي يتسولها أطفالنا في الشوارع السياحية.

الإنتاج والعمل والضبط والجد نبات لا يخرج في أرضنا لتمكن الأعشاب الطفيلية من رشوة ومحسوبية ولا مسؤولية.

نحن حلقة في ناعورة التخلف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. ما يفيدك الرثاء لحال الدروينية القردية والفراغ الدهري إن كانت أحوالك أنت أحوال سياحة لا تحسن صناعة غيرها ؟ وكان لسان حالك المتسيب أخلاقيا يقول: «إن هي إلا حياتنا الدنيا !».

أرقام ديمغرافية نحن متكاثرة غثائية ضائعة همل. ما ندري كيف نتباهى بين الأمم بكثرة عددنا، ولا كيف يتباهى بنا نبينا صلى الله عليه وسلم ونحن غثاء مرسل كغثاء السيل.

نحن السوق الهامشية التكميلية، يلقون إلينا فضلات معاملهم الملوثة للبيئة كما يلقون إلينا لعب تقنياتهم لنستهلك ما لا نصنع، وفائض زراعتهم لنأكل ما لا نحرث.

نحن الصفر على اليسار في التوازنات الدولية الثقيلة.

نكوص عن المهنة

ينكص عن مهنة التطبيب والتمريض من لا يرضى بالنظر الفاحص للجرح وتقيّحه، والداء وامتداده، والعلاج وشروطه.

ويوغل في الوهم والغرور من يظن أن الخارجين من المسجد لتطهير الساحة هم ملائكة نازلون من السماء، بارئون من كل عيب.

إنما هم بضعة من ذلك المجتمع الذي كنا منذ حين في سرد مظاهر دائه. أبناء بيئة وبناتها. يتزكون من خلال جهادهم في نشر الدعوة، أنفسهم موضوع للعلاج أثناء غشيانهم الساحة.

إذا كان الفاحص يستر وجهه لكيلا يرى المصاب على حالة مرضه، وكان المعالج يرى المصاب وعلى عيني المعالج منظار ملون بلون الورد لكيلا يلوث بصره بلون القيح فيضطر لتلويث يده وثيابه.

وإذا كان التشخيص خطأ أو مغالطة للنفس، فالعلاج شعوذة مهما كان الدواء الموصوف ناجعا في إطلاقه.

ولله عاقبة الأمور.

حضارة منخورة

نَخلصُ من المقارنة على صعيد المروءة المشتركة بين البشر، غائبة هنا مكبوتة مرذولة، حاضرة هنالك مزدهرة معمول عليها، لنضع المقارنة في منظورها الإسلامي الذي يقيم الإنسان والتاريخ على ضوء الإيمان.

في هذا المنظور هم جاهلية ونحن مسلمون. وهذا فرق جوهري، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ليس كمن لا يؤمن. يتفوق الكافر والحضارة الجاهلية ما تفوقا في أسباب القوة وزينة الحياة الدنيا، ويبقيان على سلم الأبدية خسارة وإفلاسا.

زار الشيخ محمد عبده رحمه الله أوربا، فينقل عنه قوله بعد رجوعه: «هناك إسلام بلا مسلمين، وهنا مسلمون بلا إسلام».

كلمة ما كان يقصد بها هذا الرائد المبهور بالتفوق المادي لحضارة الشوارع النظيفة، والنظام والصناعة والعلوم والمعاملة الحصيفة المتأدبة واللياقة الاجتماعية والقوة العسكرية إلى سائر المزايا ؟

تلك المزايا نعترف بها ونشرح عيوبنا ونجرح للمقارنة الأفقية الأرضية كيلا نعيش في الأحلام ونري أنفسنا واقع العالم كما نهوى لا كما هو العالم. لكن المسلمين وإن تخلفوا عن إسلامهم وتخلوا عن مزاياه لا يزالون مسلمين.

والجاهليون جاهليون ولو بلغوا ما بلغوا من الرقي المادي والرخاء المعاشي والثروة والقوة والزينة. كفر هناك وإيمان بالله واليوم الآخر هنا، هذا فرق جوهري، والفوارق الأخرى عرضية.

عرضية ومصيرية. خطير هو الفرق بيننا وبينهم على صعيد المزايا المادية العلومية المروئية النظامية، لأن النموذج القوي يجذب ويقيم

الحجة بمزاياه على عيوبنا. ويقرض جذبه وحجته ودعوته بالنموذج المتفوق في هذه الميادين إسلامنا من أطرافه.

وبعد عدة أجيال تجدنا -لا سمح الله- مسلمين اسما بغير مسمى كما هم مسلمون من عفَّى على إسلامهم الاندماج الثقافي من ذرارينا الذين ذُرِّروا في مطاحن التغريب.

يومئذ -لا سمح الله- يمكن أن نقول إننا مسلمون بلا إسلام. لكن هل يكون عند غيرنا إسلام بلا مسلمين ؟ هل الإسلام ثروة وناطحات سحاب ونظافة ظاهرية وقنابل ذرية وعلوم ونظام وقدرة مادية ؟

لا.

الإسلام حق والجاهلية باطل، هو نور وهي ظلام. مهما كانت المزايا والمعايب العرضية.

أنقل المقارنة من الأرض إلى السماء ومن أبعاد الحياة الدنيا إلى المنظور الأبدي.

ثم **﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾**[1].

سنة الله في التاريخ

ولا يغرنك عملقة الحضارة الجاهلية ففي قواعدها السوس ينخرها على مهل. يُرى أثر النخر عقدا من الزمان بعد عقد، وعاما بعد عام، وترديا بعد ترد. وبعد ما شاء الله تنادي على حضارتهم الظالمة سنة الله

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 197-196.

في عباده، وعادته في خلقه بآية: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

آية نزلت في ثمود قوم صالح عليه السلام، وكانت لهم حضارة وجنات وعيون وزروع ونحوت وبيوت وفراهة.

وكفروا بأنعم الله وظلموا وكذبوا الرسول، وذلك أعظم الظلم. قال الله تعالى في حقهم: ﴿**وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[3].

وقال تعالى في حق من آمن برسوله صالح عليه السلام :﴿**وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[4].

مكره تعالى بالكافرين أن يملي لهم ويذرهم في طغيانهم يعمهون، ويمدهم بأموال وبنين، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

تلك سنته تعالى : يداول الأيام بين الناس، ويقيم الحجة على الظالمين الطاغين المعرضين عن ربهم ثم يهلكهم. قال عز من قائل: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**﴾[5].

آيات لقوم يعلمون. وآيات لقوم يتقون.

من العلم معرفة سنته تعالى في التاريخ، ومن التقوى التوبة إليه سبحانه ومراجعة سنته ومنهاج نبيه، وإعداد القوة للتعرض أمام رحمته القائلة: ﴿ **أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[6].

---

(2) سورة النمل، الآية: 52.
(3) سورة النمل، الآية: 50-51.
(4) سورة النمل، الآية: 53.
(5) سورة الحج، الآية: 45.
(6) سورة الأنبياء، الآية: 105.

حضارة القنابل الذرية حضارة ظالمة. هذا أذان بخرابها حين يشاء الله. وما بيدها من متاع الدنيا ركام لا قيمة له إلا من حيث ابتلينا بالعوز وهم مكتظون، وبالفقر وهم أغنياء، وبالضعف وهم أقوياء، وبالتمزق وهم كلمة واحدة متألبة علينا.

ومن وراء ركامهم نستشف مظاهر سنة الله في المكر والإملاء والابتلاء، الصريحة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ثم بعد الاهتداء بسنة الله النازل بها الوحي ننظر في فعل الله بالعباد النازل به القدر.

قاعُ هذه الحضارة الظالمة -بكل معاني الظلم لاسيما الظلم العظيم وهو الكفر- مثقوب. جدرانها منخورة، أساسها الفلسفي رث تافه حيواني، بناؤها مصدوع.

نظافة شوارع جنيف وباريس تخفي قذارة الأخلاق وسرطان الإباحية.

قمامات هذه الحضارة المبذرة التكاثرية تنشر في الأرض -خاصة في بلاد المستضعفين- وباء التلوث.

قماماتها الثقافية الفنونية المجونية العارية الراقصة المجنونة تغطي الكرة الأرضية ببثها التلفزيوني الذي يقتل في الإنسان إنسانيته.

(1) سورة الزخرف، الآيات: 33-35.

المخدرات، والجريمة، والعنف، وبرودة العلاقات الإنسانية، والأنانية الفاحشة، والزنا المباح، واللواط المشروع، وتفكك الأسرة، واللائحة طويلة.

والوارثون على الأبواب. متى صلح المسلمون لوراثة الأرض فسنة الله وعد غير مخلوف. وشروط الصلاح معروفة.

بعد قرن أو قرنين أو دون ذلك أو أكثر.

بعد أن يداول الله عز وجل السيطرة على الأرض بين رأسين أو رؤوس جاهلية. بعد نوبة اليابان وأوربا والصين وما الله به عليم.

أو يسخر الله اليابان والصين والأمريكان وفرنسا والألمان ومن شاء من أهل الزمان لحمل رسالة الإسلام بعد أن يتلقوها منا. ما كان التتار الذين خربوا بغداد وكوموا جماجم العلماء أقل شراسة وفتكا من محرقي بغداد وخاذلي البوسنة في عصرنا. ثم أسلم التتار وأصبحوا من أقوى حماة الإسلام. وقد بدأ المد الإسلامي والهداية الإسلامية في أفراد من تلك الأقوام. وتصبح الدعوة مسألة جدية عامة متى شاء الله، ومتى تهيأ الداعي وتعلم مهارة النسج قبل أن يدخل إلى نادي النساجين. العريان لا يسمع كلامه الكاسون.

لب التاريخ

مهما كان فالمسيرة بدأت. مهما كانت الرحلة طويلة فالقافلة تحركت. وما الصحوة الإسلامية ومضة برق خُلَّبٍ نعوذ بالله. ما هي حديث خرافة نرجو الله. وما النصر إلا من عند الله.

والمنهاج النبوي بشر بخلافة على منهاج النبوة بعد عصور العض والجبر. ومنهاج النبوة عالمية الدعوة وقوتها وهداية الله للخلق.

حضارة هاوية ولو بعد حين.

وقوة صاعدة ببركة الله رب العالمين.

والشرط الشرط، والمرض العارض فينا لابد أن يعالج.

والتكليف التكليف، وسنة الله لا تحابي أحدا ولا تستثنيه. يُغلق في وجهنا الباب إن طرقناه بدلال انتسابنا لسلف صالح وأمة مرحومة ونحن لا نصلح لوراثة. ونُطرد إن تقدمنا لنيل الجائزة ونحن لم نعمل ولم نسابق ولم نجاهد.

بطاعة الله وسلوك منهاج نبيه ننتصر. وما موازين القوى التي تملأ الدنيا علينا ونحن خواء وصفر على الشمال بالتي تثبط عزائمنا.

بعد حين من الدهر استقرئ حصيلة التاريخ، أو اقرأ سنة الله منذ الآن في قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً**﴾ وقوله: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً**﴾[1]؟

من الخلل العميق في العقل المسلم المغزو قراءته للتاريخ ونظرته إلى المستقبل من وجهة النظر المادية. ذلك مما صبغ به الفكر الغافل عن الله وعن سنة الله، الجاهل بها، الجاهلي، تفكير المسلمين. قنوات الفكر الاستشراقي سكبت في عقولنا بواسطة المغربين. برامج التعليم الاستعماري سطحت في أعيننا التاريخ فلا نرى ماضيه ومستقبل توقعاته إلا صراعا بين البشر، وموازين قوى، ودنيا بلا آخرة، وغالبا

(1) سورة مريم، الآيتان: 74و98.

ومغلوبا، وسعيا على الأرض لا معنى له لإنسان عبث وإنسانية مرمية في الأرض.

ضخمت البرامج التعليمية المنقولة عن الأجانب الجاهليين التاريخ السياسي للمسلمين، والصراع الداخلي بين المسلمين. وغيبت تاريخ الإيمان، واستمرار الإسلام، وصلاح الدين، وفوز المفلحين.

تاريخ الإيمان والإسلام والصلاح والفلاح أخبارها منسية، ونكت وثرثرة لا معنى لها في لغة قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ويستدرج المؤرخ المادي مُجادلَه الإسلامي فيخرجه من أرضية الكمال إلى أرضية البتر، فإذا بنا نقارن الأرض بالأرض والعضلات بالعضلات، والممتلكات بالممتلكات، ساهين عن سنة الله وعن لب الوجود ومعنى الوجود.

كمن ركب في قطار متوجه قاصد، فإذا بطول معاشرته لركاب القطار تنسيه القصد، وتحصر له العالم في ركب القطار، ويشغله الحوار معهم حتى يزول من ذهنه أنه سفر.

الأرضيات والمروآت قدْر مشترك، وقدَر وبلاء، وكسب أو عجز.

والقضية ماذا نحن، وإلى أين، ومن أين ؟

في أرض الجاهليين أقيمت ناطحات سحاب علومية متناثرة في مدينة الجاهلية المجنونة. علوم الذرة قوة فظيعة، علوم الإلكترونيات والحاسوب دوامة مذهلة، علوم الطب والهندسة الوراثية أفق مخيف، فمن يتركك لتتجمع على ذاتك وتتذكر ربك ولقاءه ؟ من يعفيك لحظة ويطفئ الشاشة الأرضية ويغلق النافذة المقارنية لتخرج إلى فضاء سنة الله تتأمل المستقبل بثقة وتعتبر بالتاريخ ؟

التاريخ لبه بعثة الأنبياء عليهم السلام لهداية الخلق. تاريخ مضى بعث الله فيه نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلى الله عليه وعليهم وسلم. وتاريخ مقبل نكون فيه سائمة من الأنعام إن لم نتشبع بالرسالية التي أنطقت في بساط رستم ذلك الخارج من مسجده بقرآنه يبثها فصيحة واثقة قوية: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا إلى خلقه لندعوهم إليه».

المفتاح القرآني

فتح الله بالقرآن قلوبا غلفا وعقولا كانت في جاهليتها في كِنٍّ عن الهداية، ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجيل المبارك الذي عاش في كنفه إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

كذلك بالقرآن يعيد الله ثاني الخلق المسلم كما بدأ أوله. وكذلك بمنهاجه صلى الله عليه وسلم يضع عنا وعن كل جيل يهتدي بهدي الوحي والنبوة ركام الذهنيات والعادات والأنانيات التي تغم النفوس والعقول وتحجبها عن نور الوحي.

فتح الله تعالى بالقرآن والهدي النبوي آفاقا واسعة، وطرح على العقل الذي أسلم وصدق واتقى اقتراحات للتأمل والسير في الأرض والاعتبار بتاريخ الأمم. وعلمه ببيانه المعجز أن يعبر عن أدق خلجات نفسه وأرق حركاته الفكرية.

خلجات النفس المؤمنة المصدقة المتقية، وحركات العقل المسلم المستنير بالوحي لا تدور حول سؤال «كيف»، بل تتلقى الجواب عن سؤال «لماذا».

في إرسال القرآن الكريم العقل المسلم إلى «كيف»، يريد به القرآن أن يتدبر ما وراء المظهر، لا أن يقف مع المظهر.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1]، حث على استنطاق المخلوق عن مصدره ومعناه، عن خالقه ومصوره، لا الانكباب فقط على وصف شكله وتركيبه وطوله وعرضه وغذائه ومنفعته.

مما غيم على العقل الغافل عن الله في عصر مكتظ بالكيف الوصفي مثل عصرنا نسيان الكيف التدبُّري من جراء الركام، ومن جراء رثاثة الإيمان وعمى القلوب التي في الصدور.

عقول ماهرة بارعة في وضع أسئلة الكيف الوصفي الوظيفي، زاهدة يائسة من وضع سؤال لماذا. عقول بارعة ماهرة في الجواب المفصل المدقق المعزز بآلات الفيزياء وتفاعلات الكيمياء وأشعة الفحص وتاريخ الحقب وتجريب الوظائف.

وهم عن الآخرة هم غافلون، وعن ربهم وخالقهم لا يسألون.

رثاثة الإيمان والغيم على العقل كيف تُجلى ؟ الإيمان كيف يجدد ؟ كيف ينتعش الإيمان ويستفيق العقل وتذهب الضبابية الفلسفية الشكاكة من أمام عينيه حتى لا ينظر نظرا أعور، وحتى تكون مهارته في وضع أسئلة الكيف العلومي البحثي المخبري مقارنة مسايرة تابعة لتدبره وحضوره وذكره معنى الوجود وخالق الكون ومحيي الأنام وباعثهم ليوم تخشع فيه الأبصار.

ذلك مما يفتحه القرآن، ومما عنه يضع المنهاج النبوي التربوي إصرا يضيق على العقل وأغلالا في عنق النفس.

---

(1) سورة الغاشية، الآية: 17.

من الفتح الذي أتى به القرآن ورتب عليه النبوة أن شجع العقل على القراءة والكتابة والتدوين. فما وجد المسلمون عرقلة في الاطلاع على تراث الأمم أخذا وردا ونقدا. معهم كانت مصفاة الإيمان ومعيار الحق والباطل. كل ما سوى الله والدلالة على الله والرجوع بالعقل من الكيف السطحي إلى التدبر والمعنى فهو باطل.

ما أحجم المسلمون الأُول عن الاستدلال والاجتهاد. ولا عطلوا وظيفة من وظائف العقل الواصف المختبر المجرب، بل استعملوه لترسيخ إيمانهم بما ثبت لديهم بشاهد الوحي، يأتي شاهد العقل العلومي ليزكي الشهادة.

وسار الفتح القرآني والهدي النبوي بالعقل المسلم أشواطا مدى أربعة قرون، قاد فيها العقل المسلم مسيرة العلوم جنبا إلى جنب مع هداية العلم.

ثم أخذ العقل المسلم يغطس في سباته إلى أن أيقظته نهضة أوروبا حين قرع عليه الاستعمار مخدعه.

قطع الاستعمار الغازي على كل الواجهات الوصلة بين ماضي المسلمين ومستقبلهم، ونقلهم من عهد إلى عهد، وأبرز عدم التكافؤ وتخلف العقل الكيفي العلومي عند المسلمين. فظن المسلمون أن تخلفهم هذا قد يكون له سبب مما يستطيع العقل المقارن أن يجيب عنه. وطرحوا سؤال «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟»

ومنذئذ والمقارنة الأرضية تغلب، والحديث عن الحق والباطل، وعن الكفر والإيمان تغطي عليه جلبة الصراع السياسي والتحليل التاريخي.

ويتهم الحداثوي المتفرنج العقل المسلم بأنه غير تاريخي كلما تقدم العقل المسلم يدلي بإيمانه ويتمسك بقرآنه.

ويقترح المتفرنج حداثة بلا إيمان، وتاريخا بلا وحي.

وفد العقل الغربي مع الاستعمار في موكب سلاحه المنتصر، معتدا بنفسه، مستكبرا عنيدا. ثم استوطن الناشئة من ذراري المسلمين الذين عُرِّضوا لإشعاعه، وغذوا بلبابه على فراغ.

تحرير العقل المسلم

الآن والحمد لله يقرأ الصالحون والمتحركون من جيل القومة الإسلامية قرآن ربهم ومنهاج نبيهم فيتمثل لهم تحرير العقل المسلم أولوية في مقدمة الأولويات.

تحرير العقل المسلم من آثار الغزو المترسبة فينا، المتراكمة طبقا عن طبق على ركامنا التقليدي، المتجسدة في نخبة متفرنجة تحكم وتفرض إرادتها بالنار والحديد. وتعجز آخر الأمر عن أداء مهمتها التاريخية، وتفشل في كل ميدان.

تحرير لا بد منه ضروري لنعلم أن تخلفنا في العلوم والصناعات والقوة وضروريات الحياة ناتج عن تخلفنا عن الإسلام، وتخلينا عن القرآن. لا العكس.

لابد من تحرير العقل المسلم ليكون للمسلمين اقتصاد عصري منافس في السوق. لابد منه لإقامة الدولة القطرية على قواعد مستقرة مفتوحة على آفاق القوة والوحدة بحكم إسلاميتها. لا قرار بلا إسلام، ولا إسلام بلا وحدة.

لا قرار بدون شورى، ولا وحدة بديمقراطيات قوميات متخلفات عن الإسلام، متخلفات عن ركب الحضارة المادية التي تتكتل أقوامها

وتتركنا نتبع شبح الدولة القومية التي لبسها الثعبان المستعمر منذ القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى، وهو الآن يحاول الانسلاخ عنها لنلبسها أسمالا بالية.

لابد من تحرير العقل المسلم ليتحرر المسلمون من الوطنية الضيقة القومية القطرية.

لابد من تحرير العقل المسلم لمحو الأمية الأبجدية من خلال تعليم القرآن وتعميم العلوم. لابد منه لتوطين البحث العلومي واكتساب الكفاءات التصنيعية الاختراعية.

قال المتفرنج: نندمج إذا في العصر لنختصر الطريق !

وقلنا: بل نبني على أصولنا لأن طريق الاندماج مغلق مسدود، ولأن اندماج الإسلام في الكفر ردة، وأن تلك الطريق مفتوحة على خيبة الدنيا وجهنم الآخرة. بل طريقنا الاستقلال لنستطيع الجواب على تحديات العصر.

عصر متأزم، لا يغرنَّنا ما بناه غيرنا من ناطحات سحاب علومية مبعثرة متناثرة لا يربطها مشروع إنساني، لأن الإنسان لا معنى له عند غيرنا إلا أنانية القوي، واستهلاكية الثري، ولذة الواجد، وموت الفاقد في صومال المجاعة والحرب الأهلية، أو في بوسنة الإبادة والمذابح الوحشية والتصفية العرقية.

المسلمون مرتبطون بالعالم وبمصير الإنسانية ارتباطا ضروريا معاشيا، وارتباطا رساليا. نحن في العالم المبعوثون بالرحمة والحق والعدل.

لا بد من تحرير العقل المسلم من هاجس يوحي إلى العقل المغرَّب كما يوحي الشياطين إلى أوليائهم أننا محظوظون إن ربطنا عربتنا الوطنية القومية بقاطرة الحضارة المنتصرة.

اختيار العقل المسلم الحر أن نسعى بالجهاد الشامل العامل لنقود نحن إن شاء الله ذات يوم من أيام المستقبل القافلة الإنسانية واعين شاعرين بمضمون رسالتنا، وبما علينا للإنسان من واجبات، وللخلق جميعا من حقوق.

العقل المسلم الحر ينظر إلى قدر الله المستقبل، وإلى تكليف الله إيانا بالسعي والحيلة والمرافعة والجهاد، في أفق المدى الطويل.

الوحدة أفقنا. لا مكان اليوم وغدا في العالم لكيانات هزيلة، ولا رسالة لقوميات محصورة في قمقمها كما تحصر الشياطين.

ذلك الأفق البعيد القريب إن شاء الله نستشفه من وراء مهمات آنية ملحة، ومن تحت ركام ثقافي سياسي تقليدي موروث، أو وارد مبثوث.

وما النصر إلا من عند الله. وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين قائد الغر المحجلين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

yassine.net